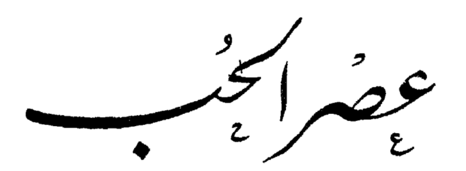

نجيب محفوظ

عصر الحب

مطبوعات مكتبة مصر



تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

الناشر : مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

سعيد جودة السحار وشركاه

دار مصر للطباعة

٣٦ شارع كامل صدقي

١

يقول الراوى :

ولكن من الراوى ؟ ألا يحسن أن نقدمه بكلمة ؟

انه ليس شخصا معينا يمكن أن يشـار اليه اشارة تاريخيـة ، فلا هو رجل ولا امرأة ، ولا هوية ولا اسم له ، لعله خلاصة أصوات مهموسة أو مرتفعة ، تحركها رغبة جامحة فى تخليد بعض الذكريات ، يحـدوها ولع بالحكمـة والموعظـة وتستأسرها عواطف الأفراح والأحزان ، ووجدان مأساوى دفين ، وعذوبة أحلام يعتقد أنها تحققت ذات يوم • انه فى الواقع تراث منسوج من تاريخ ملائكى ينبع صـدقه من درجة حرارته وعمـق أشواقه ، ويتجسد بفضـل خيال أمين يهفو الى غزو الفضاء رغم تعثر قدميه فوق الأرض الأليفة المتشققة التربة وثغراتها المفعمة بالماء الآسن • وانى اذ أسجله كما تناهى الى ، اذ أسجله باسم الراوى وبنص كلماته فانما أصدع بمـا يأمر به الولاء ، وأنفـذ ما يقضى به الحب ، مذعنـا فى الوقت نفسه لقوة لا يجوز المجازفة بتجاهلها •

★ ★ ★

يقول الراوى :

انه كانت تعيش فى حارتنا أرملة تدعى ست عين · امرأة قوية عجيبة الأطوار مثيرة الأوصاف ،كائن فريد لا يتكرر ، يدعو الى الحذر بين يدى الحياة الغامضة التى لا حدود لامكانياتها · وتبدأ حكايتها عادة وهى أرملة فى الخمسين ذات ابن وحيد يدعى عزت فى السادسة من عمره · لم لم تبدأ الحكاية قبل ذلك ؟ لم لم تبدأ وهى صبية أو وهى عروس ؟ لماذا لا يحدثوننا عن عم عبد الباقى زوجها ؟ · لم لم تنجب الا عزت ؟ ولم أنجبته على كبر ؟ أجاء النقص منها أم من الزوج ؟ ولكن ماذا يهم ذلك كله ؟ الراوى ملتزم برؤيته ولو تحرر منها لوجب أن يسترسل فى التقصى حتى يبلغ رحاب أبينا آدم وأمنا حواء · واذن فلتكن البداية وست عين فى الخمسين ووحيدها عزت فى السادسة وهى امرأة مرموقة ، ذات شأن ينمو ويتضخم مع الزمن كمدينة صاعدة ، تملك جميع العمارات الكبيرة فى الحارة فهى ثرية واسعة الثراء ، بل لا مثيل لثرائها ، ولا أدرى ان كانت هى موجدة الثروة أم زوجها ولكن مما يذكر أن شقيقتها أمونة لا تملك شيئا · أجل لا يقطع ذلك بأن ثروتها موروثة عن زوجها ، فقد نتصور أن الشقيقتين تساوتا ذات يوم فى ارث محدود ، بددته أمونة

على حين استثمرته عين ، على أى حال كانت أغنى شخص فى الحارة بلا استثناء للمعلمين والتجار .
والى الثراء الواسع خصت بصحة رائعة ، يقولون انها حافظت على رونق الشباب وهى فى الخمسين من عمرها ، لم يبهت سواد شعرة من شعرها ، ولا اشتكى لها عضو ، متينة البناء متوسطة القامة ، لا بدانة تثقلها ولا نحافة تعيبها ، يتكور نهداها شامخين وسالمين من أثر الرضاعة ويكونان فى مقدمة الجسد مركز ملاحة مستتر كأنه ـ بلغة اليوم ـ محطة ارسال ولكنه مغلف بالجلال الزاجر ، وأجمل قسماتها العينان السوداوان يشع منهما نور هادىء ذائب فى الحنان ، أما الأنف فدقيق ولكنه طويل يرشحه طوله لوجه رجل ، كذلك فاها الواسع الممتلىء ويحدثونك كثيرا عن لون بشرتها القمحى النقى الذى لم تمسه الأصباغ ، وخمارها الأبيض وجلبابها السابغ وتلفيعتها السمراء فلم تر فى الطريق مندسة فى ملاءة لف أو تزييرة أو متحجبة ببرقع أسود أو أبيض متحدية الألسن بوقار الغمر وهيبة الخلق وسحر السلوك وحصانة المنزلة ، معتزة بسمعة مثل شذا الورد ، وفى حارتنا لا يغض البصر عن نقيصة ، ولا تعفى نقيصة من القيل والقال ، والحفظ والتسجيل ، لذلك فليس أبقى فى الذاكرة من سير الفتوات

والقوادين والعــاهرات ، ونغــالى فنــؤرخ بهم الأحداث فتقرن الذكرى بحياة الضبش أو الدنف أو عليــة كفتــة · فأن يمضى تاريخ ست عين بلا كلمة واحدة تسىء اليهــا دليل قاطع على نقائهــا وطهارتهــا وفضائلهــا الجمة · وهى تمشى اذا خرجت فى الطريق فى صخبة مظلة لا تتخلى عنهــا صيفا أو شــتاء ، تتقى بها الشمس أو المطر أو تنذر بها ـ فى الأحوال النادرة ـ من يتعرض لها من السكارى أو المسطولين ويا ويل من يتعرض لها فى ذهوله من أهل الطريق · الحق أنها لم تكن مصــونة بســبب عفتهــا فحسب ولكن لقــوة شخصيتها أولا وأخيرا · كانت بحكم وظيفتهــا المالية تستقبل الكثيرين من السكان والمتعاملين ، وكانوا سرعان ما يفيقون من سحر جمالها تحت تأثير صوتها القــوى ومنطقها الجدى ونظراتها النافذة · حتى الفتــوات لم تسول لهم أنفســهم الاستهتار فى محضرها ، وربما رجعوا من لقائها وهم يتمتمون : « يا لهــا من رجل ! » · غير أن ذلك لم يعن أكثر من خيبة ثعلب مكار أو هزيمة محتــال · لم تكن رجولتها الا أسبــلوبا وجدته مناســبا للتعــامل فى حارة هى أعلم النــــاس بأحوالها · لم تكن نقصا فى أنوثة أو خشونة فى طبع أو قنــاعا لســتر عورة · كلا ·· بل كانت الرحمة عينهــا · لم تصر أسطورة الا بفضــل

رحمتها · لو أنها التزمت المكث فى دارها لسعى اليها المحتاجون · وما دارها الا أجمل دار فى الحارة · من الخارج لا يتجلى منهـا الا جدار حجرى معتم لا يعد بخير ، تتوسطه بوابة غليظة متجهمة تحمل فوق هامتهـا تمساحا محنطا وفى نقطة الوسط منهـا مطرقة نحاسـية غبراء على هيئـة قبضـة بشرية · اذا فتحت البوابة تبدت الدار جليلة وافية التقطيع تشى بالعز والنعيم ، وترامت وراءها حديقـة تنفث أخلاطا من روائح الياسمين والحناء والفواكه ، تدور حول فسقية ارتفع فوق سورها الرخامى سـور من الخشب منذ تعـلم عزت المشى والجرى والمغامرة · ومذ ترملت لم تعد تنتظر المحتاجين فى دارها · انطلقت فى الحارة بمظلتها ، تهبط على المحتاج فى داره ، ألفت التجوال الرحيم ، أصبحت الزائرة المترددة أبدا على ربوع الفقراء ، تنغمس فى أسر الكادحات والأرامل والعجزة · يقول الراوى : ان الحارة نسيت فى أيامها البؤس والجوع والعرى ، وهانت عليها واجبات الزفاف والمرض والدفن · تلاشت الهموم جميعـا تحت مظلة عين ، عين الحنون ، القـلب الخفـاق بالحب ، الجـود الوهـاب بلا حساب · التى تدير العمـارات لحساب الفقراء والمساكين · انها الطل يهطـل على القفر فيتركه أخضر يانعا يرقص بماء الحياة · أم الحارة ··

المودعة بالدعوات الصالحات ، والبسمات المشرقات والامتنان الوفير ، باسمها يحلفون ، بنوادرها فى الاحسان يتذاكرون الحقيقة والمعجزة والأسطورة ٠ وكانت تصادق وتناجى وتالف وتؤلف قبل أن تقدم الدواء ، كانت تتسلل الى أعماق القلوب الجريحة فتعايش الآلام وتخالط الأحزان وتوادد التعساء كأنما تتعامل مع أبناء أو تؤدى رسالة طرحتها عليها قوى الغيب ، ويقال انها مارست الاحسان فى حياة زوجها عم عبد الباقى فى نطاق الدار وبقدر محدود ثم انطلقت انطلاقتها الوردية عقب ترملها ٠ كان المظنون أن تقتصد عقب الترمل ، وأن تقتصد أكثر حبا فى عزت الصغير ، ولكنها تجاوزت منطق الأشياء بجناحين مستعارين من الفردوس ، رغم أمومة قوية وعميقة ، فلم تسعد امرأة كما سعدت بالأمومة التى وهبتها فى فترة حرجة غير متوقعة ، اعتبرت عزت هبة السماء لقلبها الوحيد ٠ أسرها الامتنان للرحمن وأحيت ليالى البر للحسين والسيدة وأبو السعود طبيب الجراح ٠ وكم أمضت من دهور وهى ترنو بمقلة مسحورة الى الوجه الصغير ثم تمضى فى طريق الخير ناشرة شراع الرحمة ، فى وجهه يتراءى أنفها الطويل وبشرتها النقية وعينا الأب الجاحظتان ٠ وقالت انه ولد لا بنت ٠ والعبرة بالقلب ، فليكن قلبه

عذبا حنونا . وهو نشيط وأنانى ولا يتخلى عنها الا بالهزيمة ، وهو أيضا مدمر يبعثر الأزهار ويطارد النمل ويقتل الضفادع ، ولا ينام الا وهى تقص فوق رأسه القصص . أيظن نفسه سلطانا ؟ هكذا تتساءل ضاحكة ، تتساءل بقلب شكور ونفس زاخرة بالرضى وبهجة الزهور المتفتحة ، ويخطر لها على سبيل الدعابة أن تفصل له جبة وقفطانا وعمامة ، وترامقه وهو يتزيى بها طروبا ، ثم تقول : « ما أجمل أن نهديها بعد زهدك فيها الى الشيخ العزيزى » ثم تعرضه على صديقاتها من طلاب الرحمة متسائلة : « ما رأيكن فى هذا الشيخ ؟ » فيجبنها « قمر ورب الحسين فليمد الله فى عمره الى الأبد » وتتفكر قليلا فى « الى الأبد » وهى ذكية بقدر ما هى مؤمنة . وتغشى سحابة ربيع صفاءها فتغمغم : « فليكن يومى يا رب قبل يومه ولتدفننى عند القضاء يداه » وسرعان ما تتذكر جيلا راحلا من أحبائها فتقتحم مخيلتها القبور والشواهد ، والصبار والرياحين ، وصور مسربلة بالحياة من البشر فتغمغم مرة أخرى : « انهم أحياء معنا ولكن لا يعلم الغيب الا الله » .

وتسألها أم سيدة ذات يوم :

ـ كيف صرت أشرف خلق الله ؟

فتستغفر الله تواضعا وتتمتم وهى تدارى

سرورها الذى تجلى فى ابتسـامة خفيفـة كلمعـة ضياء فى سحابة يمر وراءها القمر :
ـ ما هى الا رحمة الله بعابدة مخلصة ٠
ثم تسائل نفسها :
ـ كيف لى أن أدرى بما يجعل سعادتى فى الحب العطاء ؟
وعرف وذاع أنه عندما مرض عزت بالحصبة قدمكثت مسهدة لا تذوق النوم ثلاثة أيام ٠

★ ★ ★

وقد مضى زمن وجاء زمـن ٠ تغيرت حارتنا بدرجة ملموسة وتمخضت عن أجيال جديدة ذات مزايا باهرة ولا تخلو أيضا من غرابة ، وكانوا يتخذون موقفا خاصا مما يروى عن ست عين ، موقفـا يتسـم باللامبالاة ولا يخلو أحيـانا من قسوة :
ـ لم نطالب بتصديق ما يروى دون مناقشة ؟
ـ انهـا حكاية جميلة ولكن هل تصـمد أمام التمحيص ؟
ـ ألا ترون أن التـاريخ العلمى نفسـه تحوم حوله الشكوك ؟
ـ الاحسـان ظاهرة حقيقيـة ولكن ليس على تلك الصورة ٠
ـ ولا تنسـوا أن الاحسان نفسـه لعبـة من ألاعيب الأنانية ٠

ـ اليكم حقيقـة ست عين التى طمس الحب عليهـا ، كانت مجنونة بالرحمـة والاحسان ٠٠ ولكنها لم تجد العين التى تنفذ فى أعماق الظواهر، ولو وجدتها لتكشفت عن امرأة أخرى لها سيرة بشرية حقيقية ، وربما حافلة بالفضائح ٠

★ ★ ★

ـ ما عسى أن أقـول ردا على ذلك ؟ أقـول ما سبق أن قلت من أن حارتنا تتطوع دائما بتكبير العيب ونشره ولكنها لا تعترف بالخير الا عندما لا تجد مفرا من ذلك ٠ فضلا عن ذلك فان حكاية عين لا تخلو من ضعف بشرى مما يؤكد صدقها وواقعيتها ، ولكننا نأبى التسليم بالمثل العليا من طول انغماسنا فى الماء الآسـن ٠ المحاكم مكتظة بالأخوة ، ومن يسقط فى الطريق يموت وحيدا ٠ وما زلت متشبثا بتصديق حكاية عين فمـا من حكاية الا وتعبر عن حقيقة ما كما أنه ما من ألم الا ويشير الى جرح ما ٠ فحق لا شك فيه أن ست عين تمشى متلفعـة بشملتها السمراء ومظلتهـا العتيقة وجلبابها السابغ ٠ الابتسـامة تشرق فى صفحة وجهها الوقور ، تسعد بالدعاء والتحيات والنظرات المعجبة ٠ تمضى نحو الربوع البالية ، تجلس بين التعساء ، وتهتف :

ـ كيف حالكم يا أحباء ؟

تسأل عن زينب ، وعم حسين ، وأم بخاطرها ،

ثم تغادر المكان بعــد أن فرشته بورود الرحمة ، وما أكثر الذين يطالبون بدراستهــا على ضــوء الغــــريزة والأنا والأنا الأعــلى ، ما أكثر الذين يحومون حول حياتك الجنسية يا عين · ما أكثر الذين ينقبون لك عن فضيحة فى حفائر الذكريات·

★ ★ ★

ويقول الراوى : ان عين كانت تعشق الفصول الأربعة · ألفنا أغلبية الناس تؤثر بالحب فصلا بعينه أو فصلين أما هى فكانت تعشــق الفصول الأربعة · تحب الشتاء والسحب والمطر ، لا تحول رياحه بينها وبين الجولات الثملة بالعطف ، ولا يفزعها مطـره اذا انهل فوق مظلتها المنشــورة وجرى تحت قدميها ماء عكرا · وتحب الصــيف وتتوافق سريعا مع حرارته وتنوه بلياليه العذبة ، وتعشق الخريف وتقــول عنه انه فصــل الجمال المغســول ، والليالى المفتــونة بالنجوى وتحيات الوداع المتبادلة · أما الربيع فهو فصل الحديقة والأصوات ، وتجىء الخماسين محملة بالرسائل من أراض بعيدة مجهولة تشتعل أفئدتهــا بنــار مقدسة ، وهى تستجيب ولا شك للفصول المتغيرة بطبيعتها السمحة وايمانها الراسخ ·

وتمــوج حارتنــا بالعــواطف والانفعــالات والأصــوات المتلاطمة ، وتجتاحها العــواصف والخصومات ووجهات النظر المتضــاربة فتتابع

ذلك بهدوء واشفاق ، وتدعو للخير أن ينتصر ، ولا يرد على قلبها خاطر سوء أبدا · ولم يكن عن لامبالاة صفاؤها ، فهى تدرى غالبا ــ هى التى لا تنقطع عن النــاس ــ أين يتأرجح الخير وأين يكمــن الشر ، وهى كما قلنــا تدعــو للخير أن ينتصر ، ولكنهــا لا تنسى أن جميع المتنازعين أو كثرة منهم فى حاجة الى عونها !

★ ★ ★

ومما يذكر أن عامة المســـتهينين بهــا لم يعاصروا نشاطها ، ولم يدركوا الفترة الأخيرة من حياتهــا ، ولا شهدوا ختامهــا · ومما يذكر أيضا أن أكثرهم نشأ وتربى وشق طريقه بفضل احسانهــا ورحمتهــا ، ولكنهم يجهلون ذلك· ، أو يتناسونه أو يسيئون تأويله كما رأينا ، وتتلاحق الأعوام فتتضخم السيرة فى ضــمير الراوى حتى تصير جبلا شــاهقا ، ولكنه مثل ســائر الجبال يتعرض لعوامل التعرية ·

٢

وذات يوم ـ كما يقول الراوى ـ تجلس ست عين تحت خميلة الياسمين فى الحديقة ترمى بلباب الخبز المغموس فى المرق الى مجموعة من القطط لا تقل عن الخمس عدا ، وعزت واقف بجلبابه المقلم وصندله فيما بين الخميلة والفسقية ، يقبض بيده الصغيرة على شعاع الشمس الغاربة الذى يتقلص على جذع شجرة الليمون ، الصيف يودع الأيام الأخيرة من رحلته ولم يبق على مدفع الافطار الا قليل ٠ وعين تطعم القطط بيدها ، وتؤلف بينها وبينها ساعات الطعام وساعات المؤانسة : الأم بركة طحينية اللون ذات نجمة بيضاء فى وسط الرأس ، والأب أبو الليل أسود فاحم ، انعام وصباح من سلالتهما ، ونرجس مهداة من أسرة غريبة وكلهن روميات منفوشات الشعر ، عن العلاقة الحميمة بينها وبين القطط ، عن التفاهم والتخاطر ، عن المودة والتناغم ، عن الطاعة والدلال ، عن الولاية والأسرار ، عن كل أولئك تحكى القصص والنوادر ٠

وفى الهدوء يعلو صوت مستأذنا :

ــ يا أهل الله !

ترامى من ناحية الممر المفضى الى مدخل الدار ، تبتسم عين مستأنسة وتهتف :

ــ تعالى يا أم سيدة ٠

تقبل المرأة فى ملاءتها اللف سافرة الوجه شأن الكادحات من نساء الحارة ، تتبعها صغيرتها سيدة بشعرها الممشط وقبقابها الأخضر ، تتصافح المرأتان على حين تمضى سيدة بتلقائية نحو عزت لتشهد صراعه مع شعاع الشمس الغاربة ٠ ورغم أنها تماثله فى السن ــ السادسة ــ الا أنها تكبره تجربة ووعيا بأربعة أعوام ٠ التفت نحوها التفاتة مقتضبة ثم رجع الى الشعاع ، ووقفت هى تراقبه باسمة وصامتة ٠ وقالت عين لأم سيدة :

ــ لم أرك منذ ثلاثة أيام يا ولية يا خائنة ٠

تضحك أم سيدة من حنجرة غليظة وتقول :

ــ للرزق أحكام يا ست الكل ٠

ثم وهى تجلس فوق الأعشاب عند قدمى عين :

ــ ربنا يعلم أن يوما يمر من غير أن أراك لا يحسب من العمر ٠

القطط فى حركة متوترة بين انكباب على اللباب

والتحديق فى عين بأعين شفافة مذعورة ، وقالت عين :

ـ دائما تعثرين على الكلمة المناسبة ، مشغولة بعروس جديدة ؟

ـ الخاطبة تشوف العجب ، من يصدق أن عريسا يرفض من أجل حلة نحاس ؟

ـ ماذا تقصدين ؟

أدركت أم سيدة أنها فهمت قصدها فقالت باسمة :

ـ انه شاب يستحق الاحسان !

تقوست بركة فارتفع ذيلها مثل نافورة ، شبعت فيما يبدو ، وثبت فاستقرت فوق الأريكة جنب عين فهدهدتها براحتها وبركة تستجيب مثل موجة راقصة · تساءلت أم سيدة مترددة وموجهة خطابها الى القطة :

ـ كيف أنت يا نرجس ؟

فهتفت عين :

ـ انها بركة ، أرأيت كيف نسيت أهل الدار ؟!

فضحكت أم سيدة ، ولمحت عزت فهتفت :

ـ كيف حالك يا سىٰ عزت ؟

فلم يهتم بها وقالت عين معتذرة عنه :

ـ انه مشغول بشعاع الشمس !

فضحكت أم سيدة كرة أخرى وقالت بحماس :

ـ رائحة الملوخية تملأ الحارة !

ــ أهذا ما جاء بك يا نهمة !

فراحت المرأة تناجى شذا الياسمين والحناء فى نبرة غزل ممطوطة منغمة ·

★ ★ ★

عقب الأذان غيرت عين ريقها على عصير خشاف فاتر ثم نهضت لتصلى المغرب على حين جلست أم سيدة الى المائدة بعد أن نزعت عنها الملاءة وهى تتمتم « لا حياء فى الجوع » وراحت خادمة تشعل المصباح الغازى الكبير المدلى من السقف فوق السفرة ، ثم أشعلت قنديل الفراندة المطلة على الحديقة ، ومضى الافطار فى المضغ تتخلله كلمات عابرة · وانتقلتا بعد ذلك الى الشرفة فجلست عين على الكنبة وآثرت أم سيدة أن تقتعد شلتة لتمد ساقيها ترويحا لعدتها المتخمة · ولفت سيجارة ، تخدرت من أول نفس، نعست عيناها العسليتان وانتفخ أنفها الغليظ المسوح الأرنبية كرأس قطة · وسيطر الصمت قليلا تحت تأثير رغبة ملحة فى الراحة ، وجاءت خادمة بفانوس عزت الملون فهفت نفس عين الى الانطلاق وقالت :

ــ ما أحلى المشى عند الحسين ·

فتمتمت أم سيدة ضاحكة :

ــ عندما ترجع الى القدرة على المشى ·

ولفت سيجارة ثانية فتمتمت عين :

ـ الشكر لله فالليل جميل ٠
فرمقتها أم سيدة بنظرة طويلة ثم قالت :
ـ عندى ما هو أجمل ٠
ـ ما عندك الا حديث الزواج أو اغتياب عبد من عباد الله ٠
ـ انه حديث زواج !
ـ حقا ؟ ٠٠ عندك عروس لعزت ؟
فقات المرأة بابتهال :
ـ بل عندى عريس أو أكثر ان شئت ٠
فنظرت اليها بارتياب على ضوء القنديل الأزرق فقالت أم سيدة :
ـ وأنت العروس المنشودة !
لوحت عين بيديها محتجة وهتفت :
ـ عليك اللعنة ٠
فقالت بحماس متصاعد :
ـ ما من رجل أصيل فى حارتنا ٠٠
ولكن عين قاطعتها :
ـ احتشمى يا ولية !
ـ يا ست الستات ما زلت شابة جميلة ٠٠
فقالت بحدة :
ـ لو أردت الزواج ما لبثت حتى اليوم أرملة ٠
ـ ولم تبقين أرملة ؟
ـ هس ٠
زجرتها وهى تتطلع نحو السور القديم وقد

علاه البدر غظيم الثراء عميـق الحمـرة وانى الضياء يبدأ رحلته · تركتها تنعم بالنظر ولكنها أصرت على الرجوع الى الموضوع فقالت :

ـ ورب القمر ··

غير أنها قاطعتها بلهجة حاسمة :

ـ كفى يا أم سـيدة ، انه عزت ، انه عـزت وكفى ··

ثم تنبهت من غفلة فتساءلت :

ـ أين الولد ؟ ·

فاستاءت أم سيدة من قطع الحديث وقالت :

ـ فى الداخل طبعا ·

ـ وأين سيدة بنتك ؟

ـ لا شـك تلعب معـه ، لم يخـرج ، ها هو فانوسه ينتظر ·

قامت عين · هبطت درجتى القراندة ، غاصت فى ظلمة الحديقة حتى اختفت تماما ، ظهرت بعد قليل وهى تجر وراءها عزت بيد وسـيدة بيد ، وصوتها يتساءل فى غضب :

ـ ألا تخافان النار ؟

جرت سـيدة نحو أمهـا ، وقف عزت منكس الرأس · قالت عين مخاطبة أم سيدة :

ـ هى اللعنة ، أرأيت ؟

دارت أم سيدة ابتسـامة ولكنها هتفت وهى تزغد ابنتها :

ـ أعوذ بالله ·
ـ الولد برىء ولكن بنتك ··
فتمتمت أم سيدة :
ـ الله أعلم ··
ـ فتحى عينك يا أم سيدة ··
ـ عينى مفتوحة دائما ··

★ ★ ★

ولم تنس عند الوداع أن تقول لعين :
ـ لنا عودة الى موضوعنا ·
ولكن عين قالت بحزم :
ـ سدى هذا الباب بالضبة والمفتاح !

٣

هامت فى الصفاء المعهود خواطر قلقة · ليست بالخطيرة ولكنها تكدر بعض الشىء من ألف الصفاء ، ما وجه الانزعاج الحقيقى وراء عبث طفل ؟ · قد آن له أن يذهب الى الكتاب · ورجال ثمة يطمحون الى مالها · وتنظر الى المرآة المثبتة فى الاطار العاجى الموشى بالآيات وتهز رأسها ، وتتذكر وعدها لعزت يوم وفاة أبيه بألا تتيح مكان الأب لغريب · مضت خمسة أعوام فلم يهن العزم · الفصول وحدها تتغير وتمر

الأعوام · وما يشغل بالهـا حقا فهى شـقيقتها ،
أمونة · انهـا تكبرها بعشرة أعوام فهى شقيقة
أمونة وأمها · وتتذكر أمهمـا ، تتذكر بالاخص
وفاتها · حزنها عند الفراق رائع ، كذلك حزنها
على أبيهـا · كما أشـعل فراق الزوج قلبها ·
حزنها عميق كأفراحها ولكن الحزن يعمر اكثر ،
ما أن تزور القبر حتى تخشـع وتسترسـل فى
المناجاة · انهم مثلنا أحياء ولكن لا يعلم الغيب
الا الله · ما يؤلمها حقـا هو حدسهـا أن أمونة
تضمر لها الحسد · وهى من ناحيتهـا لا تضن
عليهـا بخير ولكن ذلك لا يستأصل الحسـد ·
ما زالت أمونة تقول لها :

ـ انك تبعثرين مالك بغير حساب ·

فتقول عين متضايقة :

ـ انه مال الله ·

فتقول أمونه بامتعاض يشوه حسن وجهها :

ـ مدى علمى أنه مالك أنت يا أختى !

فتقول ساخرة :

ـ لا نملك فى الواقع الا قبضتين من تراب ·

ـ لم تحبين سيرة الموت ؟

ـ ربما لأنه يرافقنا فى كل خطوة ، هل ينقصك شىء ؟

ـ أنت الخير والبركة ولكننى أتحسر على المال الضائع ··

فتنظر الى سجادة صغيرة معلقة بالجدار تعكس نقوشها قبة المسجد الأقصى وتهتف :

ــ اللهم فاشهد ..

ثم ترنو الى أمونة قائلة :

ــ أهو ضائع المال الذى يجبر الخاطر ويطعم الجائع ويسند العاجز ويبهج الطفل ؟ !

ــ دليني على ثرى أو ثرية ..

فتقاطعها :

ــ حسبك ، حديثك ينغص على الصفاء ..

لكنها دائما ترجع الى ذلك الحديث كما يرجع الحمار الى حظيرته بلا مرشد . لذلك فهى لا تشك فى أن مولد عزت كان صخرة تحطمت عليها أمواج الجشع ، غير مولده الموازين والحسابات . وجاءته أم سيدة بالبخور السودانى الموصوف لتلك الأحوال وهى تقول :

ــ الأقارب عقارب !

وترضى عين عما تفعل صديقة العمر وتسألها :

ــ أتدرين ما هو سر السعادة فى هذه الدنيا ؟

ــ ربنا يسعدك دائما وأبدا ..

ــ عندما لا نأخذ من المال الا ما يحفظ الحياة !

★ ★ ★

ويقول الراوى : انه فى ليلة القدر من رمضان زارتها أمونة ساحبة بيدها صغيرتها احسان ذات الأربعة الأعوام ، وعندما جلستا فى الفراندة

عقب الافطار قالت لها عين برجاء :
ـ تجنبى ما يسبب لى الكدر ٠
واحتستا القهوة فى سلام ثم قالت آمونة بعذوبة :
ـ أريد أن أجرب حظى فى ليلة القدر !
فدعت لها قائلة :
ـ فليهبك الله حظا سعيدا ٠٠
وراحت أمونة تنظر الى القطط وهى تستكن فى أركان الفراندة وتمتمت ضاحكة :
ـ انه بيت القطط ٠٠
ـ اذا شبعت استرسلت فى التسبيح ٠٠
ـ أنت أدرى بلغتها ٠٠
ثم متسائلة فى شىء من الارتباك :
ـ هل أجرب حظى ؟
قالت عين ببراءة :
ـ عليك أن تنظرى الى السماء طيلة الوقت
ـ لكن حظى بين يديك أنت يا أختى ٠٠
ـ حقا !!
من خلال ما يشبه المجازفة :
ـ أختى ٠٠ ما رأيك فى عزت واحسان ؟
تشاءمت عين لسبب خفى ولكنها قالت :
ـ عزت ابنى الصغير واحسان بنتك الصغيرة ٠
ـ ألا تفهمين قصدى ؟

ـ من الأفضل أن تفصحى عنه ٠

ـ انه واضح كليلة القدر ٠

فقالت عين بجدية منذرة :

ـ هل عندك علم بما يحدث غدا ؟

ـ لذلك يهمنى جدا ما نستطيعه اليوم

ـ اليوم حقا ؟

ـ نعم ٠٠ نكتب كتابهما !

ـ يا للعجب !

ـ نحن أحرار فيما نفعل !

كرهت عين الفكرة واستبشعتها ٠ رأت فيها شراهة يجب أن تنبذ ٠ اعتقدت أن أختها فى حاجة ملحة الى حمام بمطهر مركز ، هتفت :

ـ لا يذكرنى ذلك بخير أبدا ٠

ـ احسان بنت أختك ٠

ـ أمونة ٠٠ يسعدنى أن يختارها بنفسه ذات يوم ٠٠

ـ انها جميلة كما ترين ٠٠

ـ لا أزوج طفلا لم يدخل الكتاب بعد ٠

ـ يفعلون ذلك فى الريف وهو مهد الحكماء ٠

ـ لا يفعل ذلك الا المجانين !

اندفعت بركة بغتة نحو الحديقة كأنما شمت صيدا ، وساد الصمت منذرا بالشجن ، وانبعث صوت أمونة متغيرا :

ـ أهى كلمتك الأخيرة لى ؟

فقالت عين بجفاء :
ــ بكل تأكيد ·
ــ أنت ·· أنت قاسية !
ــ أسأل الله لك الشفاء ·
فقالت بحدة :
ــ لست مريضة يا عين !
ــ الله وحده يعلم ·
فتساءلت أمونة بمرارة :
ــ ترى أينا المريض ؟
ــ لسانك حصانك يا أمونة ·
قامت بشدة وهى تقول :
ــ طول عمرك تكرهيننى ··
ــ حقا ؟
ــ وتحسديننى !
ــ أحسدك ؟ !
ــ رغم مالك الوفير تحسديننى !
فقالت وهى تنحى وجهها عنها :
ــ لا تستدعى الشيطان الى قلبى ··
فصاحت أمونة :
ــ انه مقيم فيه !
حملت احسان على كتفها وهى تجهش فى البكاء ، مضت تغادر المكان بلا سلام ، تحول غضب عين الى حزن ، قالت بجزع :

ـ سأجدك فى المرة القادمة فى حال أفضل ٠٠
فجاءها صوتها قائلا :
ـ لن ترينى ما حييت ٠٠

٤

فتح كتاب الشيخ العزيزى بابه ورياح الخريف تحبو من مهدها الرطيب ٠ عزمت عين على ارسال وحيدها الى الشيخ ٠

ـ ستجد فى الكتاب التكريم ونور الله ٠

التكريم لأن الشيخ من رواد احسانها الدائمين ، ونور الله لأنه ينبثق أول ما ينبثق من الكتاب ٠

غير أن عزت تساءل فى توجس :

ـ أليست الحديقة أفضل ؟

فمسحت على رأسه براحتها وقالت :

ـ للرجولة أحكام ٠

وتذكر عزت جماعات الصبيان والبنات وهم يغادرون الكتاب فى العصارى ٠ لا تفصح وجوههم عن سعادة بما جاءوا منه ، ولا رضى عن شيخه القزم المشوه ٠ ورمقها بنظرة حائرة فقالت :

ـ يحب الكتاب الأولاد الصالحون ، فى الكتاب

نتعلم ، ولا احترام لانسان بغير العلم ، واحترام الشيخ واجب كاحترام الأم · اياك وأن تســول لك نفسك الضحك منــه فذلك حرام والله لا يغفره لعبد !

انه يتذكر الشيخ العزيزى فصــورته الغريبة ماثلة فى كل ذاكرة ، قزم مقوس الســاقين أقعس الصدر ، صغير القسمات كطفل ، يتمايل فى مشيته من جنب الى جنب متوكئــا على عصــا قصــيرة طولها ذراع أو دون ذلك ، كأنه لعبة مما تعرض فى الموالد ، وهيهات أن ينسى أنه رآه فى يوم ممطر وقد حمله فاعل خير على كتفه ليعبر به الطريق ·

ــ أوصيك بصفة خاصة باحترام الشيخ ··

وكررت ذلك بصــوت واضح فشــعر بنــذير الفــراق ، وبالتــوجس من تجــربة مجهــولة · واستطردت وفى تحد من نظرة عينيها الجميلتين :

ــ واسلك مع البنات السلوك الذى يرضى الله !

فتخايلت لعينيه الخميلة تحت ســتار الليــل فتــورد وجهه وتحرك رأســــه ارتباكا فتمتمت بلطف :

ــ عن الماضى قد قبل الله توبتك ··

★ ★ ★

وحينما تلقى الشيخ العزيزى الخبر فى حجرة الاستقبــال ــ وهو يجلس على حافة مقعــد مدلى

الساقين فوق سطح الأرض بشبرين ـ تهلل وجهه وقال :

ـ طالما انتظرت هذا اليوم لعلى أرد جزءا من ألف جزء من جميلك ..

لكن عزت حين تربع فى الصف الأول ـ فوق الحصيرة ـ أمام سدة الشيخ بدا هذا شخصا آخر ، لا رحب به ولا شجعه بابتسامة وكأنه لم يره ولم يسمع به . عجب أيضا للنظرة الثلجية التى تستقر فى محجريه ، والصرامة التى تكسو وجهه الصغير ، على حين جلس الصغار والصغيرات فى صمت تلفهم رهبة وتتحكم فيهم قوة مجهولة . أين اللعبة التى تتابعها الأعين فى الطريق بعطف وسخرية ؟ انه الآن يتسلطن فى مملكته ، يمارس قوة غير محدودة ، الجريدة منطرحة جنبه تهدد أيادى وأقدام المتمردين . أيقن عزت أنه أسير ، بلا دفاع ولا امتياز ، يسرى عليه ما يسرى على الآخرين ، وأضمر ألا يتكرر حضوره مرة أخرى ، ولمح سيدة فى نهاية الصف تلاقت عيناهما لحظة فيما يشبه ابتسامة ثم سرعان ما تجاهلته . ضايقه جو المساواة المخيم على المجلس ، الجميع سواسية فوق حصيرة واحدة ، تخلت عنه الامتيازات التى ينعم بها فى أى مكان باعتباره ابن الست عين وربيب الدار الفاخرة . انه وضع جديد لا يحتمل ولعل أمه

لا تدرى عنه شيئا · ولمح لصق سيدة بنتا تماثلها
فى العمر لم يرها من قبل · شدت عينيه بقــوة ·
لهـــا وجــه ثرى مســتدير وعينــان سوداوان
منعشتان · تركت فى نفسه أثرا قويا وبهيجا لطف
ألمه وأنساه حزنه · ترى فى أى موقع من الحارة
تعيش ؟ · هــذه العصفورة التى أقصيت قسرا
عن غصــنها · انهــا البنت التى خطفتها الغولة
فغامر ابن السلطان بانقاذها · ما أعذب صوتها
وهى تردد وراء صوت الشيخ الرفيع « الحمد لله
رب العالمين » · على أى حال فالكتاب ليس شرا
كله · ولن يمسه الشيخ العزيزى بسوء ·

★ ★ ★

وعنــدما جاء وقت الغــداء جلس كالآخرين
موجها وجهه للجدار · حل عقدة المنديل وبسطه
وراح يقطع الرغيف ، عند ذاك جاءه صوت عن
يمينه مباشرة :

ــ ماذا عندك ؟

رأى صبيا فى مثل سنه ، فى عينيه ضيق ولكنهما
مقبولتان ، فى فكيــه قوة ، وفى أنفــه فطس ، بدا
بسيطا ومرحا · ساءه تطفله ولكنــه لم يجد بدا
من اجابته :

ــ جبن أبيض وحلاوة طحينية ··

ــ عال ، معى طعمية وسلطة طحينة · فلنأكل
معا ··

ولم ينتظر موافقته فبسط منديله حتى تماست الحافتان ، أشار الى الطعمية باغراء ويده تمتد الى الجبن ، ثم قدم نفسه قائلا :

ـ حمدون عجرمة ٠٠

فاضطر الآخر أن يقول :

ـ عزت عبد الباقي :

ـ أنا عارف ٠٠ ابن الست عين !

استاء من أن يتردد اسم أمه مختلطا بالجبن والطعمية وسلطة الطحينة ، لكنه لم يستثقل حمدون وأعجبته نظافة جلبابه وطاقيته ، وقال له حمدون :

ـ أنت غير جائع ٠٠

ـ أشبع بسرعة ٠

فلم يرتح حمدون للاجابة ولكنه التهم الطعام بصراحة ٠

★ ★ ★

وغادرا الكتاب معا ٠ لم يفارقه حمدون وسرعان ما آنس اليه ٠ وقال له حمدون !

ـ نلعب معا ونحفظ معا ونأكل معا ٠٠ هه ؟

فحنى رأسه بالايجاب فقال الآخر :

ـ وقد يطلع لنا عفريت من القبو فمن الأفضل أن نكون معا ٠٠

ـ لا أقترب من القبو ليلا وأمي تحفظ القرآن ٠

واذا به يهتف فجأة « بدرية » فتابع عينيه

حتى وقعتا على « العصفورة » · نظرت البنت نحوهما باسمة ثم اندفعت تجرى فسأله :

ـ تعرفها ؟

ـ جارتنا ·· بدرية المناويشى ··

فأحب صداقته أكثر ·

★ ★ ★

وتلقته عين بنظرة متفحصة ومشفقة تمتمت :

ـ مباركة عليك رحلة الرجولة ·

فقال بفتور :

ـ يا له من مكان ثقيل ··

ـ عليك أن تحبه ، هو الذى يجعل منك رجلا محترما ··

فقال بتأفف :

ـ جلست على الحصيرة كالآخرين ··

ـ كلنا أبناء آدم وحواء ، والمجتهد هو الأفضل ، لذلك وضعت فى منديلك طعاما كأطعمة الآخرين ، وطعامك الآن ينتظرك ، لا تنفر من أحد ··

فقال مجاراة لها :

ـ عرفت كثيرين ··

ـ حقا ·· اذكر لى بعضهم ·

ـ حمدون عجرمة ··

ـ آه ·· ولد يتيم يعيش مع خالته ، وهى ست مستورة وطيبة ، من أيضا ؟

فصمت فى حيرة ، ثم قال :
ـ هو فقط !
ـ كثيرون ولكنهم تمخضوا عن واحد فقط !٠ وكم عدد البنات ؟
ـ أربع ٠
ـ جديدات عليك ؟
ـ الا واحدة ٠٠
ـ سيدة ؟
ـ نعم ٠٠ وعرفت اسم أخرى عند مناداتها ، بدرية المناويشى ٠٠
ـ آه ٠٠ بنت أم رمضان ، لعلها آخر العنقود من آخر زوج ، لقد تزوجت أمها خمس مرات أو أكثر ٠
فتساءل باهتمام :
ـ لها خمسة أزواج فى وقت واحد ؟
فضحكت عين وقالت :
ـ سوف تتعلم أن المرأة لا يكون لها الا زوج واحد ، ولكنها قد تتزوج من آخر اذا طلقت ٠
فسألها باهتمام متزايد :
ـ هل تتزوجين أنت أيضا من آخر ؟
ـ كلا ٠
ـ لماذا ؟
ـ لأنى لا أريد ٠٠ والآن هلم كل لقمة تسند قلبك ٠

وقبيل المساء جاءت خادمة تعلن قدوم صبى يدعى حمدون عجرمة ٠

٥

لم تكن حياته فى الكتاب يسيرة فتلقى كثيرا من الزجر ولكنه لم يجلد قط ٠ عرف الشيخ العزيزى أنه لا يستطيع أن يتجاوز معه حدودا معينة ٠ وتقدم عزت فوق جسر من العثرات ، وربما أعانه وحمسه أحيانا نشاط حمدون الموفور ، أصبحت صداقتهما حقيقة وقد عرف مع الأيام جميع الصبيان ولكن بقى حمدون الصديق الأوحد ٠ ورحبت عين بحمدون ، أعجبها منظره النظيف ورغبته المبكرة فى الحفظ ورجت أن يجد فيه عزت مشجعا على العمل ٠ قالت : ان الولد ذكى ومحب للمذاكرة دون أن يدفعه أحد الى ذلك ٠ وتمنت له مستقبلا حسنا يعوضه عن يتمه ، وأكثر من مرة قالت له : ربنا يفتح عليك ، اذا واظبت على اجتهادك فلن تترك التعليم لتتعلم حرفة يدوية ٠

وجعلت تدعوه للغداء يوم الجمعة ٠ وبسبب ذلك دعت خالته ست رمانة لزيارتها فتوطدت بينهما علاقة طيبة ٠ وكان زوجها تاجر أجهزة

سرادقات يؤجرهـا فى الأفـراح والمـآتم ، ربحه لا بأس به ولكن كان له من الأبناء عشرة ، رغم ذلك عطفت ست رمانة على حمدون وعاملته كأى ابن من أبنائها ، وكان قد ورث عن أبيـه قطعـة أرض صغيرة تنفع عند الضرورة للبيع والانتفاع بثمنهـا . واعترفت ست رمـانة أكثر من مـرة قائلة :

ـ انى أحبه لاجتهـاده .. ينـدر أن تجدى مجتهداً فى سنه .

هكذا بشرت الصداقة بخير للطرفين ووهبتهما سعادة بريئة سابغة ، وكصداقة الصبية لم تخل من نزاعات فارغة مثل هزيمة تلحق بأحدهما فى الحجلة أو السـيجة ، ولم يكن ابن السـت عين ممن يقبلون الهزيمة بروح طيبة ، ولكن لم تتعـد الخلافات قطيعـة سـاعة ، وسرعان ما يجىء التنازل من ناحية حمدون ! .

واللعب فى الحارة كان تسلية لا مفر منها ، ثم بات هدفا سعيدا عنـدما انضمت اليهمـا سيدة وبدرية ، ولم يستهجن أحد ذلك طالما دار اللعب تحت الأعين وفى ضـوء النهـار ، واسـتأثرت « بدرية » باقبال الصبيين حتى شعرت « سيدة » بأنهـا تكملة عدد ليس الا ، لم ينفعها مرحهـا ، وتوارى حظها مع دكنة بشرتها وأنفهـا المتكور الذى يعيد سيرة أنف الأم . انبهـر عزت بوجه

بدرية رغم حداثة سنه ، وسبق قلبه سنه فى الانفعال بعاطفة مبهمة تستقطر الأشواق من أرض خرافية لا وجود لها الا فى الخيال . ولكى يستأثر باهتمامها حكى لها عن داره ، أثاثها ورياشها ، عن الحديقة والفواكه والأزهار ، وقالت سيدة :

ـ أنا أعرف ذلك كله .

فقال عزت :

ـ ولكنها لا تعرف .

وقالت بدرية :

ـ نحن نلعب فى الحارة فقط .

وقال حمدون :

ـ وسيدة تدخل الدار مع أمها .

فقال عزت لبدرية :

ـ فلتزرنا أمك وأنت معها .

فقالت بدرية :

ـ أبى لا يسمح لأمى بالخروج .

وكانت سيدة تتودد اليه ، ما وسعها ذلك ولكنه لم يكترث لها ، وربما وردت على ذهنه ذكرى الخميلة ولكنها ترد مقرونة بالألم والخوف والخجل ، أما بدرية فانه يتطلع اليها بخيال عجيب سعيد مرح يعد بأفراح الدنيا والآخرة .

وقضى عامين فى الكتاب حظى فيهما بسعادة لا تتحقق الا فى دنيا من نسج الخيال والبراءة ٠

★ ★ ★

وعندما هبت رياح الخريف من مهدها الرطيب كعادتها فى الأعوام السابقة أذنت هذه المرة بفراق جديد ، حاد وأليم ، أنذر باخراج الولد الثمل من جنته ٠ اعترضه قرار جديد بالتوجه الى المدرسة الابتدائية لأداء امتحان القبول ، ولم يغره هذه المرة أن يجد حمدون فى رفقته ٠ أما بدرية وسيدة فقد غادرتا الكتاب ، ومنعتا من اللعب فى الحارة ، فتر حماس عزت وخمدت روحه ، نجح حمدون فى امتحان القبول وسقط هو فى الحساب غير أن زيارة مباركة من أمه للمدرسة غيرت النتيجة وألحقته بالمدرسة بلا ترحاب من ناحيته ولا سرور ؛ ولم تنقطع سيدة عن مجاله فهى تزور الدار عادة بصحبة أمها ، واعتاد منظرها أكثر وأكثر ، فباتت دكنتها مألوفة وتكويرة أنفها عادية ومرحها محبوبا وحديثها لا يخلو من تسلية ، أما بدرية فلم يكن يراها الا فى النادر جدا من الأوقات ، غالبا بصحبة أبيها ، يسرق منها نظرة خاطفة ، وتمضى هى جادة أكثر مما يحتمل عمرها وكأنها لم تقاسمه عامين أفراح الحياة ٠ وكان لديه من فرص العمل واللعب ، ما يشغله عنها ولكنه لم يستطع أن

يتحـــرر من ذكراهـــا ، ولا أن يمحـــو من ذاكرته تعلقها الفريد بوجهها الثرى ٠

★ ★ ★

وبدا متعـــثرا فى دراســـته ، تمضى الأيام ولا يحظى باستحسان واحد ، لا يأنس الى المدرسة ، ويحن دائمـــا الى الحرية والحديقة ٠ وذات يوم سمع تلميذا يقول وهو يومىء اليه :

ــ ما حاجته الى التعليم وهو أغنى شخص فى الحارة !!

فعجب من اصرار أمه على تعذيبه ، ولم يؤثر فيه تفوق حمدون الا قليلا ، وكان حمدون يشجعه على العمـــل ، ولولا مواظبته على المذاكرة معـــه ما أصاب أى قدر من التقدم ٠ وكان يقول له :

ــ عقلك ممتاز ولكنك كسول ٠

فتساءل عزت باستهانة :

ــ أمن المهم أن أكون مجتهدا ٠٠!

فقالت عين وهى تتابع الحديث باهتمام :

ــ طبعا ، ما أجمـــل الناجحين ، العـــلم من الايمان وأنت من المؤمنين الصادقين ٠٠

أجل كان محبـــا للعبادات ومغرما بالحكايات ولكنه حزن قبل الأوان :

واستطردت أمه باسمة :

ــ عليـــك أن تزيد من المـــذاكرة وأن تزيد من الطعام ٠٠

فقال حمدون مؤكدا :

ـ انه نحيف جدا ، فى المدرسة يقولون ان والدته تنفق مالها على الفقراء وأن الابن لا يجد ما يأكله !

فضحكت عين وقالت بلهجة متوعدة :

ـ العلم والطعام ..

فقال حمدون :

ـ يشغل نفسه بالجنة والنار !.

فقال عزت لنفسه بالجنة والنار وبدرية . وهناك أمه التى تكون نسيج حياته وأحلامه وأفراحه ومخاوفه ! انها الصلة بينه وبين الله ، والصلة بينه وبين الحياة ، هى كل شىء ، وهكذا ينظرون اليها فى الحارة . وقد ألف منذ يقظته الأولى ذهابها وايابها ، مسيرتها المكللة بالجلال والحب تحت مظلتها ، اجتماعها بالفقيرات فى الحديقة ، وتعلم أن يعتد ذلك عبادة من العبادات الرائعة ، وعلى ضوء ما ترامى لأذنيه من تعليقات على نشاطها الكريم الموفور سواء فى المدرسة أم فى غيرها مضى ينظر اليها بعين جديدة ، ويقارن وهو لا يدرى بينها وبين الأخريات . لم تكن الثرية الوحيدة التى تفعل ذلك ، حتى صدق حمدون وهو يقول له مرة :

ـ انها أم الحارة وليست أمك وحدك ..

ولكن من العجيب أن هذه القوة النادرة

لا تنفعه فى أشيائه الحميمة ، فلا عون ينتظر منها على دروسه المعقدة ، ولا فرج يأتى على يديها ليعيده الى جنة بدرية المفقودة ، انها تداوى القلوب الجريحة وتتركه يعانى وحده ، تتركه والأعوام تمر والكآبة لا تنقشع ٠

★ ★ ★

وذات يوم جاءه حمدون متألق البصر خفيف الحركة ، ولسبب مجهول انقبض قلبه وتذكر بقوة وحزن بدرية المناويشى ٠ جلسا فى الفراندة والسماء تمج رذاذا يغسل الأوراق ويطارد العصافير ، وراح حمدون يقول بحماس عجيب :

ــ دنيا ٠٠ دنيا لا مثيل لها ٠٠

فحدق اليه متسائلا فقال الآخر :

ــ أمس اصطحبنى زوج خالتى مع بعض أبنائه الى الكلوب المصرى ٠

ــ المقهى !

ــ بل المسرح ، شاهدت مسرحية من البداية الى النهاية ٠

ووصف له تفاصيل الرحلة بكل دقة ، الدخول ، الجلوس ، الصالة ، الستار ، المسرح ، الممثلين والممثلات ، الحكاية ، الغناء ، كل شىء ٠

ــ هناك تضحك وتطرب وتبكى أحيانا ٠٠

لم يستطع عزت أن يتخيل شيئا ذا بال

صورة الجنة أوضح فى مخيلته وكذلك صورة النار وقال حمدون :

ـ سوف تراها يوما ما ٠٠ لكننا نستطيع أن نحاكيها ها هنا ، فى هذه الفراندة !

ـ كيف !

ـ سأحفظك ما يقال ٠٠

ودون تردد راح يقتبس المسرحية ، ويخلق الديكور بالوهم ، ثم قال :

ـ أنت الآن فتاة تدعى چولييت وأنا فتى اسمه روميو !

فقطب عزت متسائلا :

ـ ولم لا يكون العكس ؟

فقال مطاوعا ومتجنبا اثارة غضبه أو عناده :

ـ ليكن ٠٠

ودار الحوار القصير كما تخيله حمدون ، وكان يمثل ما وسعه ذلك ولكنه لم يفلح فى حمل عزت على التمثيل ، تخيل عزت بدرية فى دور چولييت ٠ هذه هى الحكاية ٠ ولكن أين صاحبة الدور الحقيقى ؟ ! ٠

وتابعت عين المنظر من شباك حجرتها فلم تفهم شيئا وقالت لنفسها ان الأطفال يجيئون الى الدنيا بالأعاجيب ، وتلت آية الكرسى وقلبها ينضح بالعطف على اليتيم ٠

★ ★ ★

وتغير حمدون تغيرا ملموسا ·· فتنته بالمسرح لم تخمد أبدا ·· ملأ بعض وقت فراغه بهواية جديدة هى القراءة ·· بشىء من الصعوبة كان يقرأ ما تصل اليه يداه من اعلانات ، مجلات . قصص بوليسية ، واهتدى أخيرا الى ألف ليلة وليلة · ومنه تعلق عزت بالقصص البوليسية ، فلم يقرأ بدافع الحب وحده الا القرآن والقصص البوليسية ، وقال حمدون :

ـ ستكون العطلة الصيفية رائعة ، سنمثل كل حكاية نقرؤها ··

فقال عزت :

ـ لننقل المسرح الى الحارة ··

ـ فكرة ·· هل تضايقت أمك من اللعبة ؟

ـ أبدا ·· ولكن لعلنا نضم الينا ممثلات !

فضحك حمدون وراح يمسح على حاجبيه البارزين ويقول :

ـ فكرة مستحيلة ··

ـ أليست بدرية جارتك !

ـ ولكن بينى وبينها جدارا أقوى من جدار القبو العتيق ··

ولكنه يراها ، ربما كل يوم ، ويستحق لذلك الحسد .

★ ★ ★

فى ختام العام الرابع نجح كلاهما فى

الابتدائيــة • كان النجــاح بالقيــاس الى عزت معجزة • قدمت لهمــا الحلوى فى الحديقــة • فى الثانية عشرة من العمر أعلن حمدون عن رغبته فى أن يصير ممثلا ومؤلفــا • ابتسم عــزت ولم يصدق • وقالت عين :

ـ اختر عملا لا لعبة ••

كان حماسه أقوى مما يتصــوران • وسألت عين وحيدها :

ـ وأنت ؟

مط بوزه فى غير مبــالاة • انه يحب شــيئين متنــافرين ، العبــادة والسيادة • يعتز بأمــه وبداره ، ويهوى فؤاده الوجاهة • لم يكن متكبرا ولكنه يضمر أن يكون خليفة أمه • ربما فى الدار والحارة ، أو فى الدار وحدها ! • وتمتمت عين :

ـ أود أن أراك عظيما ••

ولم يدر ما العظمــة على وجــه الدقــة ولكن فؤاده هفا اليها ••

٦

عهد المدرسة الثانوية كان عهدا جديدا · فتحت نوافذ لتيار من المعلومات الجديدة . ثم تدفق منها هواء دافىء يفتح الأكمام وينضج الحنايا ، ونبت شخص جديد فى حنايا عزت ·· وحمدون أيضا ·· فانقسمت أرنبة أنفه ، وغلظ صوته ، وتقلقل بالأشواق المبهمة · وترحمت عين على عم عبد الباقى وقالت انه يحاكيه رغم أنه لم يعرفه · وقالت انه من الآن فصاعدا ستهب النسائم محملة بالعبير والمخاوف · فى ذلك العهد صار حمدون قارئا لا ريب فيه ، متنوع القراءات منقبا عن أى كلمة ذات علاقة بالمسرح ، وانغمس عزت ·· فى أوقات فراغه ـ فى قراءة القرآن والقصص البوليسية ·

وكاد يعتاد السلوان عن بدرية لولا لقاء عابر غزاه بقوة من جديد · كان يمضى لدى الغروب فى العطفة نحو بيت حمدون وكانت بدرية تعبر العطفة نحو بيت مقابل · تشجعت بقرب المسافة وغياب الأب فخرجت فى الفستان سافرة ، شبه أنثى ناضجة بوجه أكثر ثراء ونقاء ، وقامة ممشوقة ، وضفيرتين مرسلتين حتى نهاية

الظهر · كادا يتلاقيان فى نقطة واحدة تحت مظلة الغروب ، تبادلا نظرة باسمة بالذكريات المشتركة عامرة بالمودة وسرعان ما همس :

ـ أهلا ··

فهمست فى حياء :

ـ أهلا ··

وأسرعت فى مشيتها متعثرة بالخطأ ، فواحة بالشـباب المبكر · وتوقف تحت بيت ست رمانة والمغيب يقتحمه بعمق فيتحول رويدا الى شبح ·· أراد الوقوف ليثوب الى رشده ويسترد توازنه وتنعقد أواصره بما حوله من جديد ·· أدرك بوجدان جديد أنه قضى عليه بأن يحب بدرية الى الأبد · وتبدى له الحب كالحياة نفسها فى جاذبيته واستبداده · وتخلى عنه احساسه العميق بالسيادة فشعر بأنه وحيد · ولم يكن يحب المكث طويلا فى بيت حمدون لاكتظاظه بأهله فسرعان ما غادراه معا · مضيا نحو الكلوب المصرى ، وفى الطريق قال عزت ليروح عن نفسه:

ـ رأيت بدرية وأنا ذاهب اليك ·

فتمتم حمدون :

ـ كثيرا ما أراها ··

فاستسلم لدفعة داخلية قائلا :

ـ انى أحبها ··

فقال حمدون ضاحكا :

ـ مثلك تماما !
تساءل عزت بانزعاج :
ـ تحبها أيضا ؟
ـ أكنت تتوقع أن أكرهها ؟
ـ كلا طبعا ·· ولكنى أعنى بالحب شيئا آخر ·
فقال الآخر بهدوء :
ـ ليس بهذا المعنى ·
ـ أصدقنى القول !
ـ متى عرفتنى كاذبا ؟
ارتاح نوعا ما ولكن قلبه لم يعرف اليقين ، وهو لم يرغب فى شىء ويمتنع عليه باستثناء عالم البنات · لكن اليوم غير الأمس · انه يحلق ذقنه صباحا بعد صباح · ربما ليعجل طلوع شعره بيد أنه لا يدرى كيف يبلغ رسالة حبه فى حارته ذات القضبان العتيقة · اذا رفع رأسه ارتفعت معه مائة رأس متسائلة مستريبة ، وما زال يرفل فى غشاء الحياء والتقوى الذى نسجته يد أمه بأصابعها الطويلة الناصعة · والسهو عذر ولكنه لا يخلو من الحساب العسير وأين المفر من عين الله الساهرة ؟ !
وقد صار من المترددين على المسرح باغراء حمدون المتواصل · وبات حمدون يحلم بالتأليف ويحاوله سرا فلا يطلع عليه أحدا الا عزت · وكم

ود لو يغير مجرى حياته ولكنه استمر فى التعليم بهدف الاستقرار فى وظيفة ٠ عزت يواصل التعليم بدافع الكبرياء وارضاء لأمه ٠

★ ★ ★

ولم تغفل الأم عما يغلى فى داخله ٠٠ أشفقت من أن يزل ، من أن يعصى الله جل جلاله ، ورفضت أن تهرب من تحمل مسئوليتها ، أو أن تتركه وحده فى مواجهة الشيطان ، وتتشجع بالظلمة فى الحديقة وهى تجالسه فى أمسية من أماسى الربيع فتقول له :

ـ آن لى أن أعاملك كرجل ٠٠

فضحك ضحكة مقتضبة ٠ أما هى ففكرت بشقيقتها أمونة ٠٠ أرادت أن تصالحها كثيرا ٠٠ أرسلت اليها أم سيدة ٠٠ زارتها بنفسها ٠ أرجعتها الى زياراتها السابقة ولكن أمونة ظلت متحفظة ٠٠ عزمت عين على أن تصالحها بطريقة عملية ٠٠ قالت :

ـ عزت ٠٠ من أصول التقوى أن نصون أنفسنا بالزواج ٠٠

أضاءت لفظة الزواج الخميلة فتبدت بدرية منورة ، وتمتم عزت بدهشة :

ـ الزواج !

ـ نعم ٠٠ انك رجل !

ـ لم أحصل بعد على البكالوريا ٠٠

ـ انهم يتزوجون بلا شهادة ٠
فتساءل عزت ضاحكا :
ـ هل تستعينين بأم سيدة ؟
ـ بل عندنا العروس ، احسان بنت خالتك ٠٠
احسان جميلة ، تميل الى الامتلاء أكثر مما ينبغى مما ينذر بأنها ستكون فى حكم خالته أمونة، وهو لم يشعر نحوها بأى ميل حقيقى ٠ قال بوضوح :
ـ لا ٠٠
فتساءلت باستياء :
ـ لماذا يا حضرة ؟ ٠٠ البنت كاملة ٠٠
ـ ربما ولكن لا حيلة لنا فى ذلك ٠
فسألته بأسف :
ـ ألا تعيننى على استرضاء أختى ؟
ـ ليس عن هذا السبيل ٠
ـ هل تكره فكرة الزواج الآن ؟
فقال بصراحة :
ـ الحق أنى لا أكرهها ٠٠
فتساءلت باهتمام :
ـ هل عينك على عروس أخرى ؟
ـ نعم ٠
فقالت بقلق :
ـ تحدث أمور من وراء ظهرى ؛ لم لم تصارحنى من أول يوم ؟ من ؟

ـ بدرية المناويشى ··
أخذت لحظات فانداح الصمت ثم قالت بنبرة آسفة :
ـ لا ··
ـ لا ؟ ! ·· ألا تعجبك ؟
ـ أمها مزواجة ··
ـ انى أتحدث عن البنت لا عن أمها ·
ـ البنت لأمها !
ـ حكم غير معقول ··
ـ لا خلاف عليه ·
ـ لا أصدق ذلك !
ـ أمك لا تخطىء أبدا ··
فقال بشىء من الحدة :
ـ دعينى أجرب حظى ··
فقالت بتوسل :
ـ لا تستهن برأى أمك ·
فقال بضيق :
ـ لا أستطيع أن أستهين كذلك برغبتى ··
ـ انى شـــديدة الرغبـــة فى تزويجك ولكنى حريصة على سعادتك ·
فقال بقوة :
ـ لن أتزوج الا بمحض رغبتى الخاصة ··
فتأوهت قائلة :

ـ هذا صوت جديد يا عزت ، أنت طبعا حر ، ولكنى غير راضية ٠٠

انقبض قلبه ، لم يهن عليه اغضابها ، وهل يستطيع أن يخطو خطوة بغير رضاها ؟ ٠ قال :

ـ لولاك ما فكرت فى الزواج الآن قط ٠٠

لم تنبس ٠ ثقل عليه صمتها ٠ أخذ يتعذب من الداخل ٠ قال بحسم :

ـ لننس ما دار بيننا من حديث ٠٠

لبث وحده فى الحديقة بعد ذهابها ، شعر بأنها ما زالت قائمة فى مكانها ٠ أحس غضبا قاسيا يجتاحه نحوها ٠ كان أشبه بالكراهية ٠ غير أنها كراهية عابرة ٠ سرعان ما أخلت موقعها لأسر الحب وذله ٠ لكنه استطاع أن يراها بعين ناقدة كأنما استعارها من زفرات الصراصير ٠ انها تتحول اذا شاءت الى صخرة صلدة ٠ وينضب معين الرحمة من قلبها ٠ هذه المرأة العجيبة التى تؤاخى الفقراء وتصادق القطط وتناصب ابنها الغداء ٠ وكم خوفته من الشياطين وها هو أسمج شيطان يتجسد فى عنادها !٠

★ ★ ★

وقالت عين وهى تتنهد فى حزن بالغ ان الولد عنيد ٠ عنيد مثل أبيه ومثل أمه أيضا ٠ وصممت ألا تبيعه وهو جوهرة حياتها ٠ هو أيضا أحمق مثل أبيه ٠ ولولا أن عم عبد الباقى أذعن فى

النهاية الى مشيئتها لضاع مثل ذرة غبار ، أجل انه يحب البنت ، والبنت جميلة حقا ، ولكن ما قيمة الحب المترع بالضلال ؟ · والحب يحرره الزواج وعند ذلك لا يجد بين يديه الا امرأة تحلم برجل آخر · هكذا عاشت أمها متنقلة من رجل الى آخر · انى مسئولة عنه اليوم ، غدا يستقل عنى ويرتكب حماقاته ·

واستدعت أم سيدة وسألتها بجفاء :

ـ ماذا تعرفين عن عزت وبدرية ؟

فذهلت المرأة وتساءلت بدورها :

ـ ماذا عن عزت وبدرية ؟

فهتفت بتحذير :

ـ اياك والمكر ·

ـ معاذ الله ·

ـ ماذا تعرفين اذن ؟ ··

ـ أستغفر الله العظيم ·

ـ لا يتحرك قلب فى حارتنا الا وأنت معه فى نبضه !

فقالت بحرارة :

ـ لا تهمنى الاشاعات ··

ـ تهمنى أنا ··

فنفخت أم سيدة وقالت بصوت منخفض :

ـ يتحدثون عن حب ، انهم كما تعلمين يصنعون من الحبة قبة ··

ـ يتحدثون عن حبه لها ؟
ـ أجل ..
ـ وماذا يقولون عنها ؟
ـ لا شيء ، أنت تعرفين أباها ..
ـ وكيف يثبون صدق رأيهم ؟
ـ كلام فارغ ، لا يقوم على أساس ، نظرة عابرة مثلا ..

فقالت بأسى :

ـ قد يقود ذلك الى فضائح ، اصدقينى يا أم سيدة ، هل تقابلا ولو مرة واحدة ؟
ـ أستغفر الله .. البنت تعيش فى ظل أب صارم .
ـ هل عرفت أمها ؟
ـ طبعا .
ـ ما رأيك فيها ؟
ـ ليس بالرأى الحسن ..
ـ هل علمت بما يشاع عن ابنى ؟
ـ لا أستبعد ذلك ..
ـ والأب ؟
ـ مستحيل .
ـ هل حدثتك أم بدرية بهذا الشأن ؟
ـ كلا ، ولكنها طلبت منى البحث عن عريس مناسب ، وألمحت الى سى عزت وعلاقتى الوثيقة بوالدته ، ولما كنت على علم برأيك فيها فقد

اعتــذرت بحجــة أن سى عزت ما زال دون ســن الزواج ·

واقترحت حمادة الافندى ··

ـ وماذا كان رأيها ؟

ـ لم يملأ عينيها ··

فقالت عين ساخرة :

ـ طبعا ، ما دامت تحلم بالعلالى ··

ورمتها بنظرة قاسية أخجلت عينيها وقالت :

ـ وأخفيت عنى ذلك كله ··

فقالت بحرارة :

ـ لم أشـأ أن أغضـبك بكلام يجىء من ناحية أم بدرية ··

فمالت نحوها متجهمة وقالت :

ـ ولكنـك لن تخفى عنى كبيرة أو صـغيرة تخص هذا الموضوع ؟

فقالت وهى تتنفس بارتياح لأول مرة :

ـ أعاهدك مع ذلك والله شهيد ··

ولما غادرتها أم سيدة أفرغت قلقهـا فى بركة فراحت تهدهدها وتهمس لها :

ـ انى أتعذب يا بركة فادعى لى بالسلام ··

٧

مضى الحب ينمو ويتضخم مثل شجرة بلخ · وكان يسلى همه بالمسرح ولكنه يغرق وقت فراغه فى القصص البوليسيــية ، وكلما طالعــه حمدون بوجهه القوى المشرق توجس خيفــة غامضـــة ، وغبطه على تقدمه وعبــادته لهدفه · وردد عزت حكاية حبه كثيرا فكان حمــدون يشـــاركه همه بحرارة الصديق المحب ، قال له مرة :

ــ يخيل الى أن والدتك تسىء الظن بالحب ·

فقال عزت :

ــ انها تسىء الظن بأم البنت وهذا ظلم ··

ــ الحب أيضا متهم فى حارتنا ··

ــ قصص الجريمة أجمل من الواقع !

ــ أجل أجمل من واقع بلادنا ·

وراح يتحدث عن الاستعبـــاد · وكان يهتم بذلك ، ويتزايد اهتمامه بتقدمه فى العمــر · ولم يخل حديثه من عبارات دموية · ولم تحرك هذه الشئون قلب عزت بجدية مثل صاحبه ولكنه قال:

ــ بوسعنـــا أن نقــاوم الاستعباد ولكن كيف نتصرف مع أم مثل أمى ؟

فقال حمدون :

ـ ومع ذلك فلا ينكر أحد جمال ابنة خالتك !
فحنق عليــه وثارت مخاوفه الغــامضة من جديد ٠

★ ★ ★

وحصلا على البكالوريا فى عام واحد ٠ وهنأته عين ووجهها يطفح بالبشر ولكنه قال لها :
ـ لا ٠٠ انتهى الحب بيننا !
فلم تأخذ قوله مأخذ الجد وقالت مازحة :
ـ أتدرى ما عــدد البنــات اللاتى يحلمــن بالزواج منك ؟
ـ ولكنى أريد واحدة فقط ٠
ـ ما تريدها الا لأننى لا أريدها ٠
ـ بل كأنك ما ترفضينها الا لأننى أريدها ٠٠
ـ أتحب أن أروى لك نوادر أمها ؟
ـ أمها لا تهمنى ألبتة ٠٠
ـ انها كامنة فى أعماقها ٠٠
ـ هبى أنه زواج خائب فهل أعجز عن الطلاق ؟
ـ والخيبة ؟ ٠٠ أتظنها تمر بلا عواقب ؟

★ ★ ★

فى أثناء الصيف اختار عزت أن يلتحق بمدرسة الحقوق ٠ أما حمدون فعزم على أن يتوظف ليخفف عن خالته من ناحية ويهب بقية يومه للمسرح ٠ وفى ذلك الوقت عرف أن عبــد الحميــد الكومى خطب بدرية وأن الفاتحة قد قرئت ٠ اقتلع الخبر

قلبا ـ وربما أكثر ـ من جذوره ، وتبدت الحديقة لعينى عزت صفراء تنفث ريحا سامة • أكان يعتمد على سحر الحب الكامن وحده ؟ هل تصور أنه ـ سحر الحب ـ قادر على حفظ حبيبته لحين قدرته على الخروج من سلبيته ؟ • وهتف بأمه ثقة منه فى قوتها غير المحدودة :

ـ اصنعى شيئا ••

فتساءلت بجزع :

ـ أتريد أن تخطف بنتا من رجلها ؟

ـ أنت الذى مكنته من خطفها !

فتمتمت بحنان :

ـ الخيرة فيما اختار الله •

ورماها بنظرة حزنت لها ومضى • ووجد حمدون جياشا بالانفعال • وقال عزت :

ـ انى أحترق وكان ينبغى أن أحرق ••

فتساءل حمدون :

ـ هل انتهى الأمر ؟

واصطحبه الى والد بدرية ، ورجاه أن يبقيها على ذمته حتى يستقل بنفسه ، فقال الأب :

ـ لقد قرأنا الفاتحة ، وكان بوسع والدتك أن تتكلم لو توفرت لها الرغبة ••

فقال حمدون :

ـ هو الذى يرغب ••

فقال الرجل :

ـ انى رجل مستقيم لا أتعامل بالحيل !

★ ★ ★

عرف عـزت الوحدة وهو منغمس فى خضـم النـاس • حزن جزن القوى عنـدما يغلب على أمره • • أدرك أن جاهه زائف وأنه يستمد نوره من أمه • انه فى الواقع حقير فقير عاجز • أعماه الغضب حتى فقـد الرشـد • تفجرت منـه قوة حطمت رأس أمه ، انها قوة شريرة تتهـادى فى رداء ملاك ، قتلهـا سـبع مرات كل مرة بأداة خاصة • وماتت حتفـأنفها مرات أخر ، لو كان فى قوة حمـدون لغـامر مغامرة فريدة مرحبـا بالصعلكة • لكنـه أسـير الحديقة والوسـائد الناعمة وتلك القوة الغامضة المجهولة • ولشدة ارتباطه بالحياة فقد الحياة البـاهرة • انه وفى للأسر ليشدو أغانى العـذاب ، وسـتجلو بدرية عن مجال أمـله بعـد أن أرسـت فيـه طابعـا لا يبيد • وكتب عليه أن ينتظر أملا لا يعود وأن يبحث عن كائن ليس له وجود • واللعنـة على الكبرياء التى يلقنها غر فى مهد عبودية •

★ ★ ★

وفى حومة النضـال العقيم تلقى من حمـدون رسالة • ألم يجتمع به أمس وكل يوم !!

عزيزى عزت • •

عليك أن تفهمنى باسم صداقة العمر . انها صداقة حقيقية متينة ونقية . اياك أن تسىء بى الظن . لقد وطنت النفس على التضحية تحت شرط أن تفعل أنت شيئا . لكنك أعلنت عجزك وسلمت بالواقع . عند ذاك قررت أنه من حقى أن أعمل . انى مثلك فى الحب ولكنى لا أتركها تذهب مع الكومى . سنهرب معا لنتزوج بعيدا عن الأهل والحارة . معى مال قليل من ثمن الأرض سأعتمد عليه حتى ألحق بالوظيفة . لن أتخلى عنها كما لن أتخلى عن المسرح . وستبقى صداقتك معى وذكرياتها الجميلة . لا تسىء بى الظن وتقبل تحياتى . »

حمدون عجرمة

قرأها مرات قبل أن يسيطر على معانيها . وقتل حمدون مرات ـ أكثر من أمه ـ قبل أن يفهم موقفه . شد ما أخفى عنه حبه . حقا انه لمثل ماكر . لم يغفر له رغم أنه لم يتهمه . ربما كان يسخر منه . ربما كان من الأفضل أن يأخذها الكومى . اعتاد أن تنفذ رغباته قبل أن يجهر بها فماذا جرى من وراء ظهره . غصت الدنيا بالمجرمين أمثال عين وحمدون وبدرية . أصبح القتل لا يجدى . أفظع من ذلك أن تغرورق العينان بالدموع . أن تعمق صفرة الحديقة وتموت

العصافير . أن يمسى بلا حبيبة وبلا صديق وبلا أم .

وانتشرت حكاية الهرب فى الحارة كالغبار فى يوم عاصف . لفحته العاصفة باعتباره بطلها المهزوم . احترق والد بدرية وأمها وست رمانة خالة حمدون . اشتعلت خصومات . سجلت الشائعات للحادث حكاية فاضحة متكاملة . طلقت أم بدرية فى أثر شجار عنيف .

★ ★ ★

وكان يجلس فى الخميلة فى أصيل قائظ عندما رأى ظل أمه يفرش الأرض أمامه بين الشوح والجدول . اقتربت وهى تقول :

ـ لم نتبادل كلمة منذ أيام ، انه الجحيم ..

رأى وجها متهدلا وخامدا ، وقد حلت نظرة خابية فى مكان الألق البهيج . لم يعطف عليها وحول عينيه عنها . همست وهى تجلس :

ـ يجب أن تعرفنى أكثر ..

فانتقم منها بالتمادى فى الصمت فقالت :

ـ آن لى أن أعترف لك بأشياء ..

فى الصمت ارتفع نقيق الضفادع وزقزقة العصافير . واصلت الحديث :

ـ اهتممت بمعرفة كل شىء ، فكرت فى الاذعان لمشيئتك ، فجاءتنى معلومات غير متوقعة ..

أنصت باهتمام ولكنه لم ينبس .

ـ كان ثمة حب متبادل بينهــا وبين حمدون ، ذاك أمر الله ولا لوم على أحد ··
فهتف وهو لا يدرى :
ـ كان يخدعنى !
ـ أبدا ، انه فتى أمين ، لم يكن فى موقف سعيد، لا أدرى ماذا كان يدور فى ذهنه ، ولكنه على أى حال لم يخطىء فى حقك ·· .
وتنهدت بعمق واستطردت :
ـ اضطررت الى الاصرار على الرفض ولم أر خيرا فى كشف الحقيقة ··
قربت وجهها المحزون منه حتى لثمت جبينه ، وقالت :
ـ لا تستسلم للحزن ، الحيــاة أقوى من كل شىء ، سيجيئك الســلوان بأسرع ممــا تقدر ، وستجد من هى خير منها ··
عند ذاك جاءت أم سيدة تتقدمها نحنحة فظة· غادر المكان والمغيب يستفحل ، وفى الممــر التقى بسيدة قادمة لتلحق بأمها · تصافحا · وفجأة اشتعل بلا تمهيد ولا مقــدمات ، وبلا ســبب فى الظاهر · أخذ بمــا اجتاحه · لم يترك يدها · مضى الى الداخل جاذبا يدها معــه · أذعنت بلا مقــاومة تذكر متشجعة بالظلمــــة · لم ينبس بكلمــة ، ضمها اليــه ، شملها ذهول أخرس · أطاع قدرا جامحا وغامضــا وبلا أدنى تفكير فى

العواقب وكأنه يعبث فى الظلام وحده بلا شريك ٠ وتفشى فى الوحدة المطلقة اذعان ذليل ورغبة دفينة وذكرى آسرة ٠ وحفرت فى لوحة الليل السوداء نقوش لا تمحى ٠٠

٨

لم يعد الحب هو المحتل الوحيد للمكان ٠ زاحمه قدر جديد هو الخوف ٠ وتناسى الحب أحيانا ليرامق الشبح الجديد ٠ وهو شبح ثابت لا يتزحزح ولا يهن بمرور الزمن ٠ ومن الأخطاء خطأ لا ينى يطارد ويطالب بحل ٠ وسيدة فى ذاتها لا شىء ولكنها بسبب الخطأ صارت كل شىء ٠ انها الآن تستكن فى ركن من الوجود ضئيلة لا ترى غائصة فى ضعفها ولكن صوتها يدوى مثل صرار الليل ٠ لقد مات أبوها من دهر، أخوها الأكبر فى السجن والأصغر مهاجر ٠ أمها ربيبة نعمة أمه ولكن الخطأ قوض بناء وأقام محله بناء جديدا ٠ ما العمل ؟٠ ما اعتادت أعماقه أن تقترح حلولا ولكنها دأبت على القتل ٠ ونظرة سيدة التى ترمقه بها عند اللقاء العابر راسخة فى خياله ٠ مفعمة بالدلالات المشتركة ، ذليلة وجلة يائسة تؤكد له أن ما كان لا يمكن أن

يمضى كأن لم يكن · انهـــا حزنه الخفى حين يتجسد ، وأحيانا تند عنها اشـارة خفية تحكى مأســاة متكاملة ، اســتغاثة حارة صـــامتة ، تســتوهب احســانا أو رحمــة كآخر انتفاضـــة للضــفدع قبل أن تسـلم الروح · ما العمــل ؟ وتذكر وهو كاره حمــدون · لمـــاذا ؟ · ربمـــا لثرثرته الملحة عن الأقــوياء والضعفاء ، لآرائه التى يريد أن يصلح بها الكون ·

وكان يقرأ فصلا فى رواية بوليسية عندما خيل اليه أن صوت أمه يحتدم فى الحديقة · نظــر من نافــذته فرأى المرأتين ـ أمــه وأم ســـيدة ـ تسترسلان فى حديث ما · داخلته كآبة مثــل جو المغيب المخيم · سيحدث ذات يوم أمر ما · انه يتوقعه كما يتوقع مريض الفم ضربان ضرسه ·

★ ★ ★

وسمع خطوات أمه قادمة فلعن مخاوفه ومرق من الخوف الى التحــدى · جلســت على ديوان يتوسط الحجرة بوجه شاحب · أرعشت بيــدها مروحة عاجية بحركة عصبية فوردت ذهنه فكرة غريبة بأن معجزة أمه ستتحطم على يديه · وقالت عين بصوت متهدج :

ـ ماذا ينقص هذا البيت ؟

وتريثت قليلا ثم أجابت نفسها :

ـ يتلى فيه القرآن ، يعبقــه البخور ، ترعاه

الحسنات والنوايا الطيبة ، فكيف يندس الشيطان فى أركانه ؟!

آه ٠٠ لقد وقعت الواقعة ٠٠ وعليه أن يتظاهر بمواصلة القراءة ٠

وتساءلت عين بأسى :

ــ ألم تشعر بوجودى بعد ؟

فتساءل ببلاهة :

ــ ماذا ؟

ــ ألا تخمن ما ورائى من حزن ؟

أغلق الكتاب ونظر الى تهاويل السجادة الفارسية فى استسلام ٠

ــ ما هذا الذى كاشفتنى به أم سيدة ؟

فشحب وجهه ولم ينبس ٠ تأوهت قائلة :

ــ لم أعذبك ؟ ٠٠ لا معنى للتأنيب بعد فوات الوقت ٠٠

رأى بوضوح ــ ربما لأول مرة ــ مبخرة فضية محمولة بساقين من النحاس تستقر أسفل ستارة أرجوانية ٠

ــ اسمع يا بنى ؛ لست أول شخص يعبث به الشيطان ، وما يهم حقا هو تصرفنا بازاء ما نرتكب من أخطاء ٠٠

وتنهدت بصوت مسموع وقالت :

ــ نحن أغنياء ولكن لا قيمة لذلك ، وانما

قيمة الانسان تتحدد فى علاقتـه بربه ، غير أننـا نحاسب على قدر قوتنا ..

وجد نفسه ينزلق فى طريق وحيد مسدود .

واستطردت عين :

ـ قد نخطىء ولكن لا يجوز أن نظلم ، علينـا أن نصلح خطأنا ، وكلما جاء الاصلاح على غير هوانا اقتربنا أكثر من عفو ربنا ..

ورفعت رأسها كأنما ترنو الى القنديل وقالت بحزم :

ـ ستتزوج من سيدة فى أقرب فرصة ..

ثم نهضت وهى تقول :

ـ انه قرار لا يقبل المناقشة ، وما يشهد لك بالطيبة أن ترحب به ..

★ ★ ★

وتلاحقت الأحداث كأنما تقع لشخص آخر .. وذاع الخبر فى الحارة فأحدث دهشة عامة ، كما صـعق بيـوت العـرائس المرشحات لجمـالهن وأصلهن لمثل هذا العريس الفريد . وكيف ترفض الست عين بدرية المناويشى لتقبل سـيدة بنت أم سـيدة الخاطبة ؟ . أيرجع السر الى مهـارة أم سيدة ؟ . أيجد تفسـيره فى شذوذ طرأ على ذوق عزت ؟ . وكالعادة تمطى التأويل السيىء لينفث ظنـونه فأصـاب الحقيقة هــذه المرة بمحض الصدفة . هكذا تزوج عزت وهو فى الثامنة عشرة

من عمره زواجا مناقضا لذوقه وميوله · وهكذا انتقلت سيدة الى أجمل دار فى الحارة لتحتل أرفع مكان فيها · هكذا صارت أم سيدة حماة الوجيه الأول · وثارت أمونة ثورة حاقدة فقطعت علاقتها بشقيقتها الى الأبد · واستسلم عزت فى الواقع كما يستسلم الى قدر لا مفر منه · أجل لم يعتده قضاء نهائيا ، ولكن حلا ضروريا مؤقتا حتى يتخلص منه فى الوقت المناسب · وتضاعفت أشجانه على حبه الضائع فاعتبر المحنة كلها جزاء عادلا يستحقه لضعفه وتردده · ومن أول لحظة أدركت سيدة أنها لا تحظى بحب زوجها ولا حتى برضاه · وأنها تتجرع حياة باردة ، حيوانية مجردة ، لا عطف فيها ولا احترام · وبدافع من غريزة الدفاع عن النفس انطوت تحت جناح عين ، فوهبتها من قلب محروم جريح كامل الولاء والوفاء · وأوصتها أمها بالصبر والتزام الأدب · قالت لها :

ــ لك رب فليكن اعتمادك عليه وحده ··

فقالت لها الفتاة :

ــ أفضل أن أرجع الى بيتى ··

فقالت المرأة باصرار :

ــ لا تفرطى فى النعمة ، واعلمى أن الرجال لا يثبتون على حال ، وما الحياة الزوجية الا معركة ··

وفى ذلك الجو الشحيح بأى عـذوبة حمـلت سـيدة ، ثم أنجبت « سـمير » • أصبحت أما ، أصبح عزت أبا ، أصبحت عين جدة ، فحتى فى أسوأ الظروف استطاعت أن تغير أبعاد كونهـا الصـغير ، وأن تفجر فيه من ينـابيع العواطف الجديدة ما لا عهـد له به • تحرك قلب عزت • جاءه حب جديد ليزاحم حبه القديم الذى اعتاد ألمه حتى ألفه • أما عين فجنت بالوليد وعشقته ، وطمح قلب سيدة الكسير الى حياة أفضل •

وخاب عزت فى دراسته القانونية ، لا الهمـة وجد ولا الحماس ، فانقطع عن المدرسـة بعـد عامين من التحاقه بها • وضاق بحياة بلا حب ولا صداقة فعزم على التوظف • أراد أن يظفـر بقدر من الاستقلال ، وأن يملأ فراغه ، وأن يجرب الحياة الرسمية التى تفتن الكثيرين •

والتحق بوظيفة بوزارة المعارف • وسرعان ما نشب التنـافر بينـه وبين الوظيفة ومناخها العدوانى • ونصحتـه أمـه بأن يدعـو موظفى ادارته الى وليمة فى الدار تعـزيزا لمركزه ودفعا لمكر الماكرين • ومضى عليـه شهـر فى العمل • ولدى عودته سألته أمه :

ـ ألم تحدد يوما للوليمة ؟

فأجابها بهدوء :

ـ قامت معركة بينى وبين رئيسى ..
فحدجته باهتمام فقال :
ـ قدمت استقالتى ..
وأغرق فى الضحك .

٩

يقول الراوى :

ويمر عام فى أعقاب عام . يغوص حبه القديم فى غلاف من السكينة والفتـور . وتظل علاقته بسيدة باردة فى مشاعرها ، خشنة فى معاملاتها ، لا تند عنه كلمة طيبة ، ولا يتردد عن الاسـاءة اليها لأقل هفوة ، وأحيانا بلا سبب ، وكان يمضى بسمير بعيدا عنها ليمارس حريتـه فى ملاعبتـه وتقبيله . وضـاق بحيـاته بعـد غيـاب بدرية وحمـدون ، ولم تكف القصص البوليسـية لملء الفراغ ، فانزلق الى غرزة يسلى بها همه . ومن ثم عرف أين يقضى ليلته حتى مطلع الفجر ، وأن يهرب بالنوم حتى الظهيرة . وتابعت عين نظام حياته الجديد بقلق ، وكانت تقول له :

ـ نحن الذين نصنع سعادتنا بأيدينا .

وحنق عليها لسعادتها الدائمة . انها تمضى كالنحلة تمج رحيق الاحسان والحب . تتوغل فى

الحلقة السابعة بحصانة تامة ضد أعراض الشيخوخة ، تتجول بلا انقطاع ، تحظى بالنشاط والرشاقة والفرحة المتألقة • وكأنما تقصد تعذيبه وهى تقول :

ـ يا بنى تعامل مع زوجك بالرحمة ، انها امرأة نادرة المثال فى صبرها وأدبها ••

لقد ساءه أن تثبت له براءتها فى موقفها من بدرية ، انه نهم إلى ادانتها • ويذكر لها موقفها المتعنت من حبه قبل أن تعرف ما بين بدرية وحمدون من حب • انها مدانة على أى حال • وهو ممزق بين حبها وكراهيتها ، يحلم أحيانا بموتها • ولكن كيف يمكن أن تموت هذه المرآة البارعة ؟ • سوف يسبقها الى القبر • سيعيش فى أسرها عمره كله • انها تستمد من المجهول قوة خارقة • ولكن هل يتحمل الحياة بغير شعوره الباطنى بوجودها فى مكان ما فى الدار أو الحارة ؟

وتكرر حثه على معاملة سيدة بالحسنى فيتساءل ما الذى جعله يبقى عليها طيلة الأعوام الماضية ؟

الحق أنه لا يحبها ولا يريدها • من إجل سمير ؟ • أم أنه الضعف الأبدى الذى يمنعه من العمل ؟• وقال لعين ردا على توسلاتها :

ـ آن لى أن أطلقها ••

فبسطت يديها نحو السماء متمتمة :

ـ اللهم جنبه قسوة الحيوان ··
ـ اننى لا أحبها ··
ـ الرحمة أولى بمن لا تحب ·
ـ المسألة أنك سعيدة أما أنا فرجل تعيس ··

فقبضت على يده بشدة وتوسلت قائلة :

ـ لا تفكر فى الطلاق ، حتى لو رأيت أن تتزوج من أخرى ··

ما معنى أن يجىء بامرأة أخرى بلا حب ؟ ·

عين امرأة سعيدة ، والسعداء لا يرون الحقيقة ·

انها تبعثر الثروة والعمر يمضى ·· قال لها :

ـ انك تنفقين بلا حساب ·
ـ الحمد لله ·
ـ ولكنه مالى أيضا !
ـ حد علمى أنه مال الله سبحانه وتعالى ·

فتساءل ضاحكا :

ـ ألم تسمعى عن أبناء يقتلون أمهاتهم ؟

فأجابته ضاحكة أيضا :

ـ ولكنى أعلم أنك تحبنى ، وأنك ستملأ قبرى بدموعك فيسبح فوقها جثمانى ··

★ ★ ★

وانتهزت سيدة فرصة هدوء يمر بلا نقار فقالت له :

ـ ان ما ينقصك حقا هو العمل ··

فتساءل بسخرية :

ـ أعمل خاطبة ؟

فتجاهلت غمزته وقالت :

ـ أنشيء عملا مناسبا ، لن تضن عليك والدتك برأس المال ٠

غزته الفكرة ، كره أن تجيئه من سيدة ولكنها غزته ٠ تمتم بسخرية :

ـ عجيب أن تخرج منك فكرة طيبة ٠٠

قالت وهى تتنهد :

ـ جرب وربنا معك ٠

انه فى حاجة الى العمل والاستقلال ، ولكن من أين يجيء بالخبرة ؟ ٠ أين اللعين حمدون ؟ ٠ لم يحسن فى حياته سوى قراءة قصص الجريمة وتدخين الكيف فى الغرزة ٠ ها هو حلم جديد يبزغ فى حياته القاحلة ٠٠

١٠

لم يعقب اقتراح سيدة فعل ٠ حلم بالمشروع وبرم أكثر بالحياة ٠ لم يجد فى الحياة جديدا سوى أنه اعتاد عادة جديدة هى الاكثار من الطعام بتأثير من الكيف ومعالجة للضجر ٠ ولأول مرة يفقد رشاقته ويميل قليلا الى البدانة ٠

فى ذلك الوقت نسى حبه القديم أو كاد ، وانطبع بطابع بلادة غاشية ، حتى العبادات مارسها بلا شعور وبلا حماس ، ولم يجد أمامه الا سيدة فحملها مسئولية تدهوره · وتمردت الفتاة فجأة على وضعها فهرعت الى عين وهى متدثرة بعباءة وراء النافذة تشاهد من وراء الزجاج مطرا ينهل فوق الحديقة فيغسل الأوراق ويملأ القنوات ، بثتها شكاتها وقالت وهى تجهش فى البكاء :

ـ يجب أن أرجع الى أمى ··

فلم تسترد عينيها من الماء والشجر ممتصة ثورتها بهدوء شامل ، ثم تساءلت :

ـ ألك أم غيرى ؟

فهمست بأسى :

ـ أنت أم الجميع ولكننى معذبة ··

وتساءلت عين وهى تلتفت نحوها بحنان :

ـ أما زلت على جهلك بالرجال ؟

ثم وهى تقرصها بعطف فى خدها :

ـ انهم يحتاجون الى تربية متواصلة تمتد من المهد الى اللحد ، وهذه هى مهمتنا ··

وهمت الأخرى بالكلام فأسكتتها باشارة وواصلت :

ـ المرأة التى تهجر بيتها جاهلة لا تستحق

نعمـــة الأمومة ، ماذا غيرك بعـــد أن آمنت بأنك أعقل الستات طرا ؟
ــ حتى متى أتحمل الاهانة ؟!
ــ انه يهينني بأفعاله أكثر مما يهينك بأقواله فهل أهجره بدورى ؟
ــ ولكن ..
فقاطعتها :
ــ حذار أن تعرضى الأمير الصغير للمتاعب .

★ ★ ★

وكان يسترق النظر الى الفتيات اللاتى حلمن ذات يوم بالزواج منـــه . انهن يرحن ويغدين فى الحارة محصـــنات بالزواج والاســتقامة . أى واحدة منهن تفضل ســيدة جمالا . وأى واحدة كانت خليقة بأن تخلق الحب خلقا اذا لم يتوفر فى البداية . وكان يعاشرهن فى الخيال وقد وهنت روادعه بوهن عباداته . ومن بينهن « اعتدال » عرفت بشىء من المرح فتشجع ذات مرة الى توجيه تحية هامسة اليها ، لكنـــه قوبل بتجهم خشن . وكان للخطأ عواقبه ففاجأه الشيخ سلام الدروى ناظـــر المدرســـة الأوليـــة بالانقضاض عليـــه فى الغـــرزة ، وعلى مرأى من الجالسين بصـــق على وجهه وهو يصيح به :
ــ يا نذل .. يا جبان ..
وتفشت الفضيحة وعرفت تفاصيلها . اعتذر

قوم بأنها لم تكن الا تحية بريئة ندت عنه ببراءة وفى حال من السهو ، واستنكرتها الأغلبية ولكنها لم تنف عنه حسن النية · وتشابك الشيخ والفتى حتى خلص الآخرون بينهمـــا · ورجع عزت الى داره بشفة متورمة ·

★ ★ ★

لأول مرة ينصب لوم على شىء ينتمى الى الست عين · وتوارت سيدة عن الأعين لتبكى وحدها · أما عين فوقفت أمام عزت وقفة عسكرية وقالت :

ـ اصدقنى هل عبث بك الشيطان ؟

فقال بحرارة كاذبة :

ـ كلا ·· وأقسم لك على ذلك ··

فقالت وهى تتنهد بارتياح :

ـ انى أصدقك ·· ولكنك أخطأت ··

واســتدعت الشــيخ الدروى فأكرمتــه غاية الاكرام وأكدت له براءة ابنها · واستبقته للغداء فصالحت بينــه وبين عزت ، ولم يسكن خاطــرها حتى اطمــأنت الى أن سحابة الكدر قد تلاشــت تماما ·

★ ★ ★

لكنهــا لم تتلاش من سماء عزت ، هو وحده يعلم بكذبه ونفاقه وجبنه · ويشعر بأن عباداته خسرت روحها الصافية فلم يبق منهــا الا وخز خفى ينفث الأسى ، وأذعن أكثر لمغريات الطعام

الدســم وراح يحلم بالمشروع المقــترح ، ويحلم أيضــا بالهجرة من الحارة التى لم تعــد تعد بخير .

ومنــه علمت عين برغبته فى انشــاء مشروع تجارى فرحبت بالفكرة وقالت :

ـ طــالما فكرت فى ذلك ولكنى انتظــرت حتى يجىء التفكير من ناحيتك !

فلم يسر بترحيبها وتوجس خيفة غامضة أما عين فواصلت تقول :

ـ لا خبرة لك ولكن لا شىء يدعــو لليــأس ، الناس حولنا يعملون فى الخشب والدقيق والبن والخيش ، دعنى أدخــلك شريكا لأحــدهم حتى تعرف سر المهنة ، ولك بعد ذلك أن تستمر معــه أو أن تستقل بعمل مماثل فى مكان آخر ..

وجد نفسه على باب تغيير حاسم سيقلب نظام حيــاته رأسا على عقب فأجفل ، هــل يتحرر من النظام الراهن بسهولة ؟ . انه يسهر الليــل فى الغرزة ، وينام حتى الظهيرة ، ويتسلى بقصص الجريمة ، فهل يتخلى عن ذلك كله دفعة واحدة ؟!

قال :

ـ عظيم .. سيحدث ذلك دون ريب .. ولكن فلنؤجل تنفيذه الى حين ..

وألحت عليه الرغبة فى هجر الحارة ، وجعــل يردد رغبته على مسمع من سيدة . وانقبض قلب

الفتاة ، انها تعلم يقينا أن حياتها الزوجية تدين ببقائها حتى الآن لعين · وأنه لا يتجاوز الحد فى الاساءة اليها حذرا من اغضاب أمه ، ولكن أى مصير تلقى اذا انفرد بها فى مكان بعيد ؟ !

لذلك وشت بأفكاره الى عين ورجتها أن تخفى وشايتها · وتساءلت عين آسفة :

ـ أين يجد مثل دارنا ؟· ولكنه كره الحارة !

وفكرت لأول مرة فى ادخال تجديدات حديثة على هندسة دارها العريقة ، وأنفقت بسخاء لتوصل اليها الماء والمجارى والكهرباء حتى عجب عزت من قرارها المفاجىء ·· وتساءلت ضاحكة :

ـ لم لا ؟·· الدنيا تتغير ، وثمة تجديدات تنفع ولا تضر ··

ثم سألته بعد حين قليل :

ـ هل يروقك الأثاث الحديث ؟

فتساءل بفتور :

ـ ما أهمية ذلك ؟

ـ أنت شاب ، وللشباب ميوله ، ممكن أن تجىء بقطع حديثة لتحتل مكانها بين الأثاث القديم ، وممكن أن نجعل التجديد فى حجرتك شاملا ، لم لا ؟ ، ماذا يعجبك ؟!

فرفع منكبيه ولم ينبس ، وداخله شك فى أن سيدة وشت به ، وسألها حال انفراده بها :

ــ هل أطلعتها على رغبتى فى الذهاب ؟
فأنكرت بشدة ولكنه قال بازدراء :
ــ نمامة واشية مثل أمك ..
وعلمت عين بالشجار فواجهته بالصراحة التى تحبها . قالت له :
ــ لا تعذب أم سمير أكثر من ذلك ، هذه دارك وقد جددتها اكراما لك ، اذا كانت لك رغبة فى حياة مستقلة بعيدا عن حارتك فلن أعترض رغبتك ، لك الحرية الكاملة فافعل ما تشاء ..
هكذا وجد نفسه مع حريته ــ مرة أخرى ــ بلا عائق . وسرعان ما فترت همته وتحرك تردده .
كالعادة توقف فوق العتبة . ترى من أين يزحف عليه هذا الشلل ؟! . أهى حياته الخاصة التى تحولت الى بلادة ناعسة ؟ . هل يوجد فى عين سر خفى ما زال يجهله ؟

١١

وطالعته عين ذات صباح بعينين محمرتين من أثر البكاء فانزعج جدا . لا يذكر أنه رآها تبكى من قبل . سألها عما بها بقلب منقبض يتوقع شرا فهمست بصوت حزين :
ــ بركة .. تعيش انت !

فما تمالك أن ابتسم وهو يشعر بالنجاة وتمتم :
ـ القطط تملأ الدار ، البقية فى حياتك ٠٠
ـ لكن بركة هى الأصل ، كان قلبها عامرا بالحب وحسن الادراك ، ولم يكن ثمة مفر فقد انتهى الأجل ٠٠
كان قد ألف هذه الدروشة ، وسلم بحقيقة المناجاة المتبادلة بين أمه والقطط ، وربط بين ذلك وبين حيويتها التى لم تنقص منها سبعون عاما شيئا ٠ كذلك ألف معاشرة سيدة الراكدة ، بل لقد تألم لاجهاضها مرتين بلا سبب ظاهر ، وقد خفق قلبه عندما قالت له أمه ذات يوم :
ـ آن لنا أن نرسل سمير الى الشيخ العزيزى!
حقا بلغ سمير السادسة ، وضحت الآن ملامح عين فى وجهه ٠ الزمن يتقدم وقد بلغ هو الخامسة والعشرين من عمره ، لم يحدث شىء هام فى أثناء ذلك ٠٠ بل حدث تغير خفى لم يهمس به لأحد ٠
تغير عجب له وانزعج ٠ انه الفتور الذى يسرى فى شعوره الدينى ٠ لا علاقة بذلك بأحد من جلساء الغرزة فهم مؤمنون ٠ ولا شأن لقصص الجريمة فى ذلك ٠ ولا دخل للتفكير فى الموضوع كله فهو لا يفكر ، ما هو الا فتور فى الشعور أخمد الحماس واليقين فتهاوت أركان المعبد ٠ كف عن الصلاة والصيام ولكنه احتفظ

بسر ذلك لنفســه فلم يفطن اليــه أحد · وخوت الدنيا ولم يكن فى وسعه أن ينعشها ، دنيا الفراغ والأكاذيب ·

ولاحظ رمضان الزينى ـ عميـد الغـرزة ـ كآبته ذات ليلة فقال له :

ـ وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها ··

فابتسم متسائلا فقال الرجل :

ـ جاه ومال وشــباب ، مــاذا تريد أكثر من ذلك ؟ !

صــدق الرجل ، حتى لو تهادى اليه ميراثه فأى شىء يفعل أكثر مما يفعل الآن ؟

★ ★ ★

والغرزة تقع فى مكان فريد على الحد الفاصل بين التاريخ والعصر · فى حجرة مراقبة بالحصن العتيق القــائم فوق القبــو · فى زمن مضى كان القبو هو الباب الشمالى للقاهرة وكان الحصــن فوقه هو مركز الأمن والدفاع · اليــوم الحصن أثر من الآثار ، والقبـــو ممر عبــور ومنــامة للمتسولين ، ورمضان الزينى هو الذى اختــار حجـرة المراقبـة مكانا لغــرزته · ليســت هى بالواسعة ولا بالضيقة ، وتتوفر لها التهوية من نافذة كان يطلق منها الرماة نبالهم · وجعل من خفــير الآثار خادما للجلســة ، يهيىء الجــوزة ويدور بها ، ويشارك فى التدخين والعشاء ·

واحتفل عزت بدخول سـمير الكتاب فأهدى الجلسة خروفا مشويا وصينية بسبوسة · وكانت ليـلة لا تنسى ، لا للمناسبة السـعيدة وحدها ، ولكن لخبر جديد جاء به رمضان الزينى · قال :

ـ رأيت أمس ما لا عين رأت ··

فتطلعت اليه الأعين الناعسة فقال :

ـ مر بالدرب الأحمر سيرك اللاوندى فذهبت اليـه ، بدأ العـرض بالتمثيـل ، رأيت الممثـلة والممثل · من هما فيما تظنان ؟

قال له صوت مازحا :

ـ أمك وأبوك ··

ولكنه استمر دون مبالاة :

ـ بدرية المناويشى وحمدون عجرمة !

وتصايح القوم :

ـ غير معقول ··

أما عزت فقـد اندلق فوق رأسه جردل مـاء مثلج · فتح عينيه نصف المغمضتين فرأى الماضى متجسدا متسربلا بالانفعالات العنيفة ·

وقال رمضان مسرورا بما أثار من اهتمام :

ـ بلحمهما ودمهما ·

ـ يا للفضيحة ! ··

وقال رمضان :

ـ ما يبدأ بالهرب ينتهى فى السيرك ··

وتعاقبت التعليقات كالسموم ، ورجع الماضى

الى عزت ككأنما لم يغادره دقيقة واحدة لا سبع سنوات كاملة أو تزيد ، ورغما عنه تمتم :

ـ يا لها من نهاية !

قال رمضان :

ـ صممت على احراجه فقابلته ..

ـ لا شك أنه انزوى ؟

ـ أبدا .. ضحك .. رحب بى . انه الاستهتار نفسه ..

وسأله عزت :

ـ ألا زال السيرك يعمل بالدرب الأحمر ؟

ـ كلا .. ولكن حمدون وعد بزيارتنا هنا ..

ـ مستحيل ..

ـ ستزون بأنفسكم بعد قليل ..

ـ حقيقة انه لقارح ..

واضطرب عزت ، أيرى حقا حمدون بعد قليل ؟ . ماذا يهم ؟ . لقد اندثر الماضي ومات الحب كما ماتت الصداقة ، ولكن وثوب الماضى على الحاضر فجأة لا يمر دون قلقلة . وتخيل للقاء صورا عديدة ولكن ما حدث فعلا كان مختلفا عما تخيل ، فما أن رآه ينظر اليه من تحت حاجبيه البارزين بابتسامة مشرقة فاتحا ذراعيه حتى لبى دعوته فتعانقا بحرارة ، وهمس حمدون فى أذنه :

ـ ما جئت الا من أجلك عندما عرفت أنك من أركان الجلسة ٠٠

وسرعان ما شـارك فى التدخين بتلقائية وبلا حرج ٠ لم يجد أحد الشجاعة للحملة عليـه غير أن رمضان قال :

ـ ما تصورت أن أجدك فى سيرك ٠٠

فقال ضاحكا :

ـ عملنـا مقصـور على المسرحيـة وهى من تأليفى ٠٠

ـ ولكنك كنت موظفا ٠٠

ـ وما زلت ، المسرح هواية ليس الا ٠٠

ـ ولكن ٠٠

ولم يكمل رمضان فضحك حمدون وقال :

ـ ولكن زوجتى ، أليس كذلك ؟ ٠٠ انها فنانة مثلى ، لا جدوى من محاولة اقناع حارتنا بذلك ٠ ولكننا أسرة شريفة كسائر الأسر الشريفة !

لم تتكلم ال قرقرة الجوزة ٠٠ ثم التفت نحو عزت وقال :

ـ يسـعدنى أن أشـارك فى الاحتفال بدخول ابنك الكتاب ٠

ـ وأنت كم ولدا لك ؟

ـ أنجبت واحدا لم يعمر أكثر من عام ولا شيء بعد ذلك والحمد لله ٠٠

فسأله رمضان :

ــ ألا تود أن تعقب ذرية ؟
ــ انها معطلة لنشاطنا الفنى !
وقرقرت الجوزة وحدها مرة أخرى ٠

★ ★ ★

غادرا الغرزة معا ٠ دعاه الى داره وهى تغط فى النوم ٠ جلسا فى الحديقة رغم ميل الخريف الى البرودة فى وقت الفجر ٠ تبادلا عواطف صادقة دون أن يشير أحدهما الى الماضى بكلمة ٠ شعر عزت بانتعاش روحى جديد ٠ قبض على الصداقة صافية بعد أن تلاشت الذكريات الأليمة ، عادا كما كانا بلا حب خائب يفرق بينهما ٠ انها لمعجزة تروى ٠ وراح حمدون يحدثه عن تجربته :

ــ ما زلت موظفا ولكن كفاحى فى سبيل الفن لم يضعف لحظة ، واكتشفت أيضا موهبة بدرية ، ولكن كيف نشق طريقنا فى الصخر ؟ ، لقد رفضتنى المسارح كمؤلف كما رفضت زوجتى كممثلة ، لم أيأس ، عرفت صاحب سيرك اللاوندى ، اقترحت عليه أن نعرض مسرحية من فصل واحد بدلا من التهريج المجوج ، لم نطالب بأجر فقبل التجربة ، وقد نجحنا وانبسط الجمهور أضعافا مضاعفة ٠

فقال عزت :
ــ ولكنه سيرك !

ـ أجل ، خير من لا شيء حتى تلين ارادة المستقبل ..

وبدافع من الكبرياء أخبره عن مشروعه التجارى الذى يفكر فيه فقال حمدون :

ـ لا مفر من ذلك والا فما معنى الحياة ؟!

ـ اذن فحياتك الآن لها معنى ؟

ـ انها مفعمة بالنشاط .. ومن يدرى فقد أكون فرقة ذات يوم ..

ـ وهل تستطيع أن تصمد أمام المسارح الكبيرة ؟

ـ أعنى فرقة صغيرة تعمل فى روض الفرج صيفا ، وان وجدنا تشجيعا عملنا فى الكلوب المصرى شتاء ، هذا ما أطمح اليه ..

دار رأس عزت ، دهمته خواطر غريبة مباغتة . غزاه الهام بعث النشاط فى قلبه وارادته . لم يشعر من قبل بمثل ما شعر به وقتذاك من قدرة على الخلق والعمل والاقتحام . ولكى يثبت لنفسه أنه موجود لا حالم قال :

ـ حدثنى يا حمدون عن التكاليف المطلوبة .

فقال الشاب باهتمام :

ـ أجرة المسرح والممثلين والملابس والديكورات . ليس بالمبلغ الخيالى ولكن يحسن ألا يقل عن خمسمائة جنيه ؟

فتفكر عزت قليلا ثم تساءل :

ـ هل يضمن النجاح ؟
ـ أعتقد ذلك خاصة اذا أدرنا البوفيه لحسابنا ٠
وساد صمت ملىء بالانفعالات والأمن والدوافع العميقة ٠ أخيرا تمتم عزت :
ـ دعنى أفكر يا حمدون قليلا ٠٠

١٢

لم يكن فى حاجة حقا للتفكير (كما يقول الراوى) اذ اجتاحته دفعة حيوية شديدة الانطلاق والقوة خلقت منه انسانا جديدا مجنونا بالحركة ، دعاه داع عميق للنشاط والثورة على البلادة حتى أنكر نفسه ، واعتبر الأمر لهوا مقدسا ولعبا سارا تتحقق به الذات على نحو بهيج ٠ ولم يغب عن تقديره أن المشروع الجديد يجب أن يطوى فى طى الكتمان ٠ فلا هو مما يمكن التفاهم عليه صراحة مع عين ، ولا هو من الأعمال التى تعترف بها حارته أو تحترمها ، وسوف تلوكه الألسنة اذا انكشف السر وتجود عليه بأشنع الصفات ٠ ولم يثبط ذلك من همته ، بل لعله ضاعف من حماسه وتمرده ٠ صاحب مسرح ومديره ترى ما معنى ذلك ؟ أعجب من

ذلك أنه لم يكتشف فى نفسه اهتماما حقيقيا بالمسرح ولكنه يجرى وراء المجهول وتحدياته الغامضة ، وينجذب الى فترة ماضية عامرة بالثراء . ولا مراء فى أن الادارة تناسبه ، وصحبة حمدون تعابثه ، وتغيير الجو من النقيض الى النقيض يسحره ، وحسن أن يخوض التجربة متحررا من ضعف الحب وآلام الوهم وبقلب متوفز جسور .

ولكن هل تصادفه عقبة غير متوقعة عند أمه ؟ لقد قالت له :

ـ انه مبلغ لا يستهان به ولكنه لك حبا وكرامة . أريد فقط أن أعرف مشروعك .

ـ شركة مقاولات .

ـ دعنى أجلس ساعة مع شركائك .

فانتفض غاضبا وهتف :

ـ لست قاصرا ، وهذه أعمال رجال !

فضحكت قائلة :

ـ ليكن التوفيق حليفك .

★ ★ ★

اصطحبه حمدون الى شقته القديمة بشارع محمد على لتناول الغداء . عندما لاح له المسكن شعر برغبة جازمة فى الهرب ، غير أن الرغبة اندفعت فى اتجاه ومضى هو يتأبط ذراع حمدون فى الاتجاه المضاد ، بعد دقيقة أو نحوها سيرى

بدرية المنـــاويشى ، ممثـــلة ســـــيرك اللاوندى ، ويلمس راحة يدها لأول مرة فى حياته ، لو حدث ذلك قبل سبعة أعوام لتكهـــرب أو اشتعل ولكنه يمضى اليوم متحررا وقد ذاب العاشق القديم فى تيـــــار الزمن وحـــل محـــله آخر يحلم بالادارة والسيادة واللهو البرىء ٠

فتح البـــاب عن محيـــاها الثرى وابتسامتها العـــذبة وهى مرتدية فستانا منقطـــا بالبياض ، ورجع الصوت القديم وهو يقول بمرح وترحيب :

ـ أهلا ٠٠ أهلا ٠٠

دخل عالما جديدا لا رجعة منه ، كان عليه أن ينقب عنه بين الأطلال ، وها هو يغـــزوه متمتعا بالصحة والصداقة ٠ وتذكر آلام الحب فتعجب ٠ وجلس فى حجرة اســـتقبال متواضعة وغرقوا فى المجامـــــلات والذكريـــات المحـــايدة ثم دعى الى المائدة ، أثاث البيت ينطق بالتقشف ٠ صـــديقه يعانى وها هو يجيئه فى الوقت المنـــاسب ، وراح يتناول طعامه بحماس قائلا :

ـ تعلمت أن آكل كما ينبغى ٠

فقالت بدرية :

ـ ازداد وزنك ، ربما أكثر مما يلزم ٠

فقال حمدون معترضا :

ـ انه مناسب جدا لصاحب مسرح ومديره ٠

فقالت بدرية :

ـ اليك المسقعة وورق العنب اللذين تحبهما كما أخبرنى حمدون ..

★ ★ ★

وفى حجرة الاستقبال مرة أخرى قال عزت لحمدون :

ـ أرجو أن تكون أحسنت التصرف مع الوقت .

فقال حمدون بثقة :

ـ سنبدأ مع أول يوم من الموسم الصيفى ، اخترت الممثلين والممثلات وسائر العاملين ، وعند العصر سيحضر الأستاذ يوسف راضى المحامى . كل شىء جاهز ..

وتذكر وفاة أبيها منذ سنوات فقدم لها العزاء وسألها :

ـ هل ترين والدتك ؟

فقالت باقتضاب :

ـ تزوجت من زمان وانتقلت بصفة نهائية إلى البلينا ..

فقال حمدون ضاحكا :

ـ حسن أن يعيش الرجل بلا حماة ..

فقالت له بدرية :

ـ أنت مؤلف ووغد ..

ـ المهم أن أنجح كمؤلف .. أتود أن ترى مكتبتى ؟

فأجاب عزت بفتور :
ــ طبعا ولكن فيما بعد !
وسألته بدرية :
ــ كيف حال الست عين ؟ أما زالت تغــدق الرحمة على أهل حارتنا ؟
فقال ببرود :
ــ فى غاية من النشاط والحركة ·
ــ أظن أنه آن لها أن تستريح ·
ــ ما زالت شابة !
فقال حمدون باخلاص :
ــ انها تستحق الاجلال على مدى الدهر ·
فقال عزت ضاحكا :
ــ يخيل الى أحيانا أننا أسرة من المجانين !
ــ اذن فالجنــون خــير ما يوصــف للعــالم لانقاذه ·
ــ أما زلت تعتقد أن العالم فى حاجة الى انقاذ ؟
فرفع حمدون يديه الى السماء وهتف :
ــ اللهم فاشهد !
لاحظ عزت أن بشاشــة بدرية تلاشت فجــأة وأنها غيرت مجرى الحديث قائلة :
ــ لولا ثقتى فى أن مالك لن يتبدد ما رضيت أن نجرك الى مشروعنا ·
ــ شىء مدهش حقا أن تنجحى كممثلة ·
فأشارت نحو حمدون وقالت :

ـ انه صاحب الفضل ، هو المكتشف وهو المعلم ، يحفظنى دورى ، وأصر على تقويتى فى القراءة لأحفظ بنفسى ٠

فقال حمدون :

ـ لا أهمية لذلك طالما نقدم فصولا فكاهية ، ولكنى أحلم بتقديم مسرحيات شكسبير المترجمة فعليك أن تحسنى النطق بالفصحى ٠٠

ـ الضحك مضمون النجاح ، وسوف يؤيد المدير رأيى ٠٠

فابتسم عزت وامتنع عن الاشتراك فى الحديث، فقال حمدون :

ـ الدموع تنجح كالضحك ، وقد قرأت حضرتها مناظر من يوليوس قيصر فأبدعت ٠

نسى الحارة تماما بادىء الأمر ، كأنها ذكرى أسطورية ، ثم جاءت سيدة لتجلس لصق بدرية ولتدعو الى مقارنة قاسية ٠ نشأة واحدة فى الحارة والكتاب ٠ هذه تتألق بالذكاء والجمال والاقتحام والأخرى تتوارى وراء مسكنة ماكرة ببشرتها الداكنة وأنفها المتكور واستسلامها المنيع ، لكن ماذا صنع حمدون من بدرية وماذا صنع هو من سيدة ؟ وقال أيضا ان سيدة أنجبت سمير أما هذه الحسناء فلم تنجب شيئا ، ولو قدر لها أن تتزوج منه لتغيرت المصائر الى أفضل أو أسوأ ٠

خير ما يفعله ألا يفكر الا فى مركزه الجديد كمدير على هذين النجمين ، وهو به سعيد جداً ، وفى غمرة حماس تتزايد قال :

ــ لعلنا نستطيع أن نستأجر مسرحا كبيرا فى المستقبل ..

ففرج حمدون بين ساقيه واضطجع الى مسند الكنبة ليطلق لأحلامه العنان ، أما بدرية فقالت :

ــ المهم أن ننجح أولا ..

فتمتم عزت :

ــ لو أنها تهبنى ما تبعثره على الناس ، لو أننى أبيع عمارة واحدة !

فاستوى حمدون فى جلسته وقال محتجا :

ــ انى أعترض على الأحلام غير البريئة !

فقال عزت دون مناسبة ظاهرة :

ــ أود أن يكون لى مسكن خاص بعيدا عن الحارة ..

★ ★ ★

قبيل العصر بقليل دق جرس الشقة فقام حمدون وهو يقول :

ــ جاء الأستاذ يوسف راضى وبدأ العمل .

١٣

تمخض الشتاء وأوائل الربيع عن اعداد واستعداد وانفاق مال ، كما تمخض عن صداقة حميمة بين عزت وحمدون وبدرية ·· ويعد الراوى تلك الفترة من أسعد الفترات فى حياة عزت عبد الباقى ، وكان يمضى شطرا كبيرا منها فى شقة حمدون وهناك تحررت العقود مع مالك المسرح والممثلين والممثلات والفنيين والعمال ، وقد جدد أجزاء من مبنى المسرح وزوده بكراسى جديدة ، وركب له مدخلا جديدا ، فصار تحفة روض الفرج كما قال عم فرج يا مسهل عامل النظافة والمنادى الذى يرجع أصله الى الحارة ، وفى ابريل نقلوا مكان العمل الى المسرح نفسه ، وقد أعجبته حجرة المدير بمكتبها الكبير والخزانة والمقاعد الجلدية الوثيرة ، ومارس عزت عمله كمدير وصاحب للمسرح ، لم تكن السيادة بالحال الغريبة عنه ولكنها لم تمتد من قبل الى آخرين بهذه النوعية ، وتبدت الممثلات لعينيه فى صورة مبتذلة جدا أقرب الى دنيا الدعارة منها الى دنيا الفن ، وخيل اليه أنهن يتسابقن فى عرض أنفسهن عليه فمضى فى اعداد شقة خاصة فى بيت متوسط

الحجم بحدائق شبرا ، نوى أن يدعو اليه أسرته الخاصة بعد أن يستغله لنفسه قبل ذلك · ولاحظ حمدون تطلعاته الجنسية فقال له :

ـ استمع الى الصديق ، جميعهن رخيصات كما ترى ، الممثلات الحقيقيات لا يفرطن فى مسارحهن من أجل مسرح كمسرحنا ، وأى علاقة مع امرأة من هؤلاء ستضع من مكانتك كمدير ، افعل ما تشاء بعيدا عن هنا ··

فامتثل للنصيحة ، لم يلق صعوبة تذكر ولم تكن به رغبة حقيقية · توفر لعمله بحماس وأشواق ، أو توفر له الرجل الجديد الذى خلق ليلة الاحتفال بدخول سمير الكتاب · وكان يلحق عند منتصف الليل بغرزة رمضان الزينى فى حجرة المراقبة بالحصن الأثرى العتيق ثم يمضى الى دار عين عند مطلع الفجر ·

وكمدير قرأ النص ، مسرحية نديم السلطان المقتبسة من ألف ليلة وليلة ، وهى التى قدمها حمدون من خزانة مؤلفاتهالمتراكمة · شهد أيضا البروفات ، وراقب حمدون وهو يقوم بواجباته المتعددة من الاخراج والتمثيل ، ورنا بدهشة الى بدرية وهى ترفل فى طيلسان الجارية الرومية · من المؤسف أنه لا دور له فى هذا العمل المعقد السحرى الفاتن ، وقال له حمدون ·

ـ ستكون المنافسة شديدة ، توجد ثلاثة مسارح غير مسرحنا ·

فقالت بدرية :

ـ ميزتنا أن روايتنا جديدة ، جميع رواياتهم معادة من التراث الهزلى ··

فقال الأستاذ يوسف راضى :

ـ لا تنسى أنهم يغيرون العرض كل أسبوع ، والمكان لا يحتمل عرض رواية واحدة أكثر من أسبوعين أو ثلاثة ولو كانت جديدة !

فقال حمدون :

ـ عندى مخزون غزير ، وعندنا التراث أيضا ·

فقال المحامى :

ـ أنا عندى أيضا رواية جديدة !

فسألته بدرية :

ـ فكاهية ؟

ـ دراما جادة تعالج مشكلة تعدد الزوجات ·

فقال حمدون :

ـ موضوع صالح أيضا للمعالجة الفكاهية ·

ـ لكنى تناولته من نواحيه المأساوية ··

فقالت بدرية :

ـ لا يصلح لروض الفرج على أى حال ··

فرمق يوسف راضى عزت برجاء فقال هذا بثقة جديدة :

ـ دعنى أقرأها أولا ٠٠

وارتاح للقرار واعتبره من صميم عمله ٠

★ ★ ★

وكانت ليلة الافتتاح فى أول مايو ، وقف عم فرج يا مسهل أمام المدخل يصيح بصوت مجلجل :

ـ هنا ٠٠ ست بدرية الفنانة ٠٠ مسرحية جديدة لم تمثل من قبل ٠٠ نديم السلطان ٠٠ ضحك حتى منتصف الليل ٠٠ أغانى ورقص ٠٠ مشروبات من جميع الأنواع ٠٠

كان عزت متوتر الأعصاب ، لم يعرف هذه الحال من قبل الا فى محنة الحب ، وعند استهتاره بالعبادات لأول مرة ٠ وقد شهد فى فترة الاستعداد نجوم الفرق المنافسة فاطمأن الى تفوق بدرية ولكنه لم يضحك ـ كما توقع ـ وهو يتابع بروفات نديم السلطان ٠ ومال نحو الأستاذ يوسف راضى ٠٠ كانا الوحيدين فوق مقاعد المشاهدين ـ وتساءل هامسا :

ـ لا شىء يدعو للضحك !

فقال المحامى منتهزا الفرصة :

ـ نحن فى زمن الدراما والدموع !

انقبض عند ذاك صدره وتساءل هل يرجع الى أمه مفلسا ؟! ٠ لذلك توترت أعصابه مع مشرق يوم الافتتاح ٠٠ غير أن الجمهور كان أكبر من المسارح جميعا ، غصت المسارح بالرواد ، وعمل

البوفيه بنشاط فاق طاقته فاستهلكت بالعشرات قوارير الغـازوزة والجنجرايل وسندويتشـات الفـول والطعمية والبسطرمة · أكثر من هـذا ضج الجمهـور بالضحك ، واسـتبق الى ابداء الاعجاب ببدرية بألفاظ خرقت الاحتشام فى كثير من الأحايين · وضح له نجاح العرض فاسترد الثقـة والكبرياء وتضاعف تقديره لحمـدون ، وشـارك الجمهور فى سروره بالرغم من أنه كان يرى المسرحية للمرة العاشرة ·

١٤

عقب الانتهاء عند منتصف الليل جاءت بدرية وحمدون الى حجرته بوجهين سـعيدين فهنـأهما بالنجاح فقال حمدون بحماس :

ـ نجاح فاق كل تصور ·

وتمتمت بدرية :

ـ وبعد أن تاب الله علينا من السيرك ··

وقام عزت وهو يقول :

ـ سنحتفل بالنجاح فى حدائق شبرا !

اجتمـع فى الشـقة الجديدة بدرية وحمـدون ويوسف راضى ، كذلك فرج يا مسـهل للخدمة · وجىء بالكبـاب والفسـتق والويسكى على حين

عكف فرج يا مسهل على تجهيز الجوزة · وذاق عزت الويسكى لأول مرة فى حياته فغزاه انفعال جديد بالطرب فلم يعد يبالى بوضعه الغريب ولا بتدهور قيمه · ورأى الكأس بيد بدرية فملكه شعور بأنهم ـ جميعا ـ أجانب ، وأن الحارة القديمة كانت حلما ليس الا · ولما أخذت النشوة بحمدون قال بنبرة خطابية :

ـ عرفت عزت فى كتاب الشيخ العزيزى فخلقت فوق الحصيرة صداقة أبدية ولكنى لم أعرف الا الساعة أنه قدر علينا مصير واحد ··

فقال عزت :

ـ لكل انسان أسرة حقيقية خلق لها . وباهتدائه اليها يبدأ حياته الأصيلة ··

فهتفت بدرية :

ـ كان علينا أن نضل طويلا قبل أن نهتدى الى أنفسنا !

وانغمس عزت فى الهام عجيب فتح قلبه لاشراق باهر · وأحب بقوة خيالية كل شىء · غير أنه كان أيسر عليه أن ينفصل عن قلبه أو كبده من أن ينفصل عن حمدون وبدرية أو المسرح الذى هيأ لهم الالتحام الأبدى · وقال ان بالدنيا كنوزا من الأفراح لا تخطر على بال · ولكن على من يروم السعادة أن يكون حاسما مع المعوقات المتلفعة بظلمة الأركان العتيقة · وقال :

ـ أرغب فى الغناء لولا قبح صوتى !
فقال حمدون ضاحكا :
ـ لنترك هذه المسألة لضميرك .
وقالت بدرية مشيرة الى حمدون :
ـ كثيرا ما كان يصحو من نومه فيقول : « حلمت بعزت ! » .
فسأله عزت :
ـ بم كنت تحلم ؟
ـ آه .. ما أسرع أن تنسى الاحلام
فقالت بدرية :
ـ لكنى ما زلت أذكر حلما رواه لى ، رأى أنكما ترقصان معا فى قارب ..
ـ ترى ما تفسيره ؟
ـ انه لا يهتم بذلك ..
فقال فرج يا مسهل :
ـ لقد تحقق فى مسرحنا « الفردوس » فهو قارب على شاطىء النيل ..
وسرعان ما رحبوا بالتفسير غير أن عزت تساءل فى نفسه ترى ماذا كنت أحلم فى ذلك الزمن ؟ !

★ ★ ★

فى طريقه الى الحارة امتعض كثيرا فلعن الحركة القسرية التى تختتم بها الدائرة . حتى الغرزة آوى أصحابها الى مضاجعهم . وهو

يخوض الظلمة ارتطم به معتوه معروف يطيب له الهيمان فى الظلمة ، وقع رأسه عليه وهو يتمتم بكلمات ممطوطة لا معنى لها فسال لعـابه على خد عزت وعنقـه • تقـزز الفتى ودفعـه بقـوة فارتمى على ظهره عاويا • وجاءت نحنحة الخفير من بعيد محذرة متسائلة فبلغ به القهر منتهاه • وانطلق منـه قرار متكامل الأبعاد غير مسـبوق بتدبير • كما ينقض قاطع طـريق متربص • أن يرجع الى الأبد : أن يقفـز من شرفة الحصـن العتيق ليقتنص حظا جديدا •

دار على عقبيـه ومضى مترنحا ثمـلا بفـرحة طاغية •

★ ★ ★

يقول الراوى :

انه عند عصر اليوم التالى جاء رسول الى دار عين حاملا وثيقة طلاق عزت من سيدة • أجهشت سـيدة بالبكاء وراحت تجمع ثيابهـا فى غمـرة انفعالها • أسندت عين رأسها الى ظهر الديوان المحلى بالحكم والأمثـال وأغمضـت عينيهـا • وجعلت تهمس :

ــ ما أصدقك يا قلبى ••

ولما فتحت عينيها رأت سيدة تنتهى من جمع ملابسها ، وسمير يتابعها بوجوم •

صاحت عين :

ـ ما هذا ؟ !
واعتدلت فى جلستها وقالت بلهجة آمرة :
ـ أرجعى ملابسك الى مكانها ..
فقالت سيدة بصوت ممزق :
ـ كيف أبقى معه تحت سقف واحد ؟
فقالت عين بأسى :
ـ لن يرجع الينا مرة أخرى ..
وقامت تتمشى فى الحجرة ثم تمتمت :
ـ لن أدهش اذا تحول السقف الى سحاب وانهل منه المطر ..
تمتمت سيدة :
ـ أذهب الى أمى ..
فقالت بضيق :
ـ قلت لك ان أمك هى أنا ، هذا بيتك ، هذا ابنك سمير ، امكثى بسلام حتى يرزقك الله بخير منه ..
وأرجعت الملابس بيديها وهى تواصل :
ـ حدثنى قلبى بأن أحداثا ستقع ، السحب لا تتجمع لغير ما هدف ..
وأخذت سمير من يده الى الديوان وقالت مغيرة لهجتها :
ـ الشيخ العزيزى يثنى عليك طيب الثناء ، اجتهد وعز قلوبنا الجريحة ..
همس الولد بقلق :

ـ بابا ..

ـ لقد باعنا بالتراب ، هذا هو أبوك !

وتساءلت فى تأثر :

ـ لم لا يكون الجزاء من جنس العمل ؟ !

وتنهدت ثم قالت مخاطبة المجهول :

ـ لقد ربيته على خير ما أستطيع ، وباركته بالهدى والحب ، ماذا به ؟. كان دائما وكأنه يتوثب للسفر ، الى أين ؟ ، لماذا تخاصم الهواء ؟ ، لماذا تتحدى راحة البال ؟ ، لماذا تبحث عن المتاعب ؟

★ ★ ★

واصلت الحياة سيرها الوئيد فى الدار والحارة . مكثت سيدة بالدار فى حياة جديدة خالية من الصراعات . استأنفت عين جولاتها المجللة بالحب والرحمة مبدية تماسكا وصبرا جليلا حيال المكدرات . وسعدت باجتهاد سمير وتقدمه . وانتشرت أنباء عزت فى الحارة .. الطلاق والهجر ـ فلعن الرجال والنساء الولد المارق .

١٥

الموسـم يمضى فى نجـاح · عرضـت فرقـة «الفردوس» أربع مسرحيات من تأليف حمدون · ومنـذ أواخر أغسطس بدأ نشـاط جديد لاعداد مسرح الكلوب المصرى للموسم الشتوى · عزت يتمرّس بعمل المدير ، يحن لرؤية سمير ، ولكنه لا يفكر قط فى زيارة الحارة · ودارت مناقشـة حول الموسم الجديد فى مكتب عزت فقال حمدون عجرمة :

ــ انى أحذرك من مسرحية يوسف راضى ··

فقال عزت :

ــ سأجد وسيلة لاقناعه ··

عند ذاك تساءلت بدرية :

ــ هـل نعرض رواياتنـا الهـزلية فى الكلوب المصرى ؟

فقال حمدون :

ــ انها ليست هزلية بالمعنى المتعارف عليه ، فمن خلال الهزل أقول أشياء لها قيمتها ··

فقال عزت :

ــ عظيم ، ولكنـك حدثتنى مرارا عن خطـة أخرى ··

ـ اذا كان لا بد من الجد فعنـدنا مسرحيات شيكسبير المترجمة ..

تحرك رأس بدرية فى رشاقة وقالت بعذوبة :

ـ انى أحب يوليوس قيصر !

رأى عـزت حركة الرأس وسـمع الصـوت فحدث شىء . ذهل عن بقيـة الحديث . ودعاه وذهبا وهو لا يدرى . تمتم وحده :

ـ رباه .. انى أحبها !

انها ملء القلب والنفس والحياة . هل بعث الحب القديم فى هذه اللحظة ؟ . أو أنه لم يذهب قط ؟ . أكان يلاعبـه طيـلة الوقت ؟ انه لشىء رائع مخيف . يقتحم الحيـاة ليشحن المستقبل بشـتى الاحتمـالات . وعـلى أى حال يعصـفـه بالسـلام الى الأبد . تراجعت مشكلة يوسـف راضى الى الوراء . أجل لقد توثقت علاقته به ، هو صاحب الفضل فى تعريفه بأكثر من امرأة من صديقاته . أشعل فى شقته ليالى حمراء ، لكنه لم يهنأ بها كما تخيل . بدا له الحب التجارى مقززا للغاية . وشىء خفى فى طبيعته ينغص عليه صفوه ويملؤه بالقلق والنفور . شىء خفى مغرم بالنكد ، حتى قبل أن يكتشف حبه . أو قبل أن يعترف به ، نفسه تتضح له بقوة كما تتضـح الأسماك تحت سطح الماء الشفاف . من يدرى ، لعله لم يغامر باقتحام الحياة الجديدة ، ولم يهجر عين وسمير

وسيدة والحارة ، الا من أجلها ، من أجل بدرية وسعيا وراء ندائهـا المجهول · انه الآن أسـير تماما ، حياته محاصرة بأعداء مجهولين · متى يحدث الانفجار ؟ · ولكن مهلا · يجب أن تعالج الأمور بأسلوب آخر · ليبق الحب سرا دفينـا تحت الصـداقة والعمـل · فلتستمر الحيـاة فى عذوبة ولتسـتكن عذاباتها الخفيـة · وعـاوده التناقض القديم الذى عاناه فى رحاب أمه · يحب بدرية ويحنق عليها · يحب حمـدون ويمقته · يحظى بالنجاح ويقع فى قبضة القلق الحديدية · وعليه الى ذلك كله أن يتعامل معهـا ــ بدرية ــ ببراءة وتلقائية · لكنه لا يطمئن الى ثقته بنفسه ، ويتعرض لهبوب رياح المخاوف · وهى ــ وهذا يقين ــ تحب زوجها لحد العبادة · وهى فيما بدا مطبوعة على الوفاء والاستقامة · ومواقفها من جمهور المعجبين مضرب المثل · ما أغبى حارته فى اتهامهـا لهـا ولزوجها · الأغبيـاء يتهمونه بالاتجار فى عرض زوجته · ليته كان من هؤلاء الصنف من الناس · اذن لاتخذت الحياة مجرى فريدا فى انسجامها وسعادتها · وأشد ما يثيره سـاعة الأرق أحيـانا فى أواخر الليل · يستيقظ فيسـبح فى عالم أثيرى ويجيش صـدره بأعمق عواطف الشـجن والأسى · ما أفظـع سـاعات الأرق · وسحب الذكريات تهطل صـورا براقة

تنداح فى دموع ودماء وظلام وأنين • عند ذاك يرجع الى البدائيـة الأولى المجـللة بالبراءة والوحشية والألغاز • وجعل يختلس من الرقباء ساعة تحت ستار الظلام فيقف فى ركن ليشـاهد دورها فوق المسرح فى مناجاة وابتهال ، ويتساءل فى ذعر ترى عن أى مصير سيسفر هذا الجنون ؟

★ ★ ★

يقول الراوى :

انه قبيل انتهـاء الموسم بأيام قلائل اندفعت الأحـداث فى مجرى جديد غير متـوقع ، أخـل بتوازنها وأسرع بايقاعها ، فانطلقت مثل قذيفة •

كان عزت فى حجرة الادارة عندما جاءت بدرية وحدها قبل رفع الستـارة بسـاعة أو نحوها • ورغم أنها تبدت قلقة مشتتة البـال الا أن قلبه خفق بابتهاج عميق اذ كانت أول مرة يخلو اليها مذ عمل فى رحابهـا • جلست وهى تقـول بنبرة المعتذرة :

ـ انى مضـطرة الى اشراكك فى همـومى الشخصية ••

تضاعف ابتهـاجه للثقـة الموهوبة من أحب الناس وقال :

ـ همومك هى همومى أيضا •

قربت رأسها من المكتب حتى مست خصـلات شعرها الأسود حافة الغطاء البللورى وهمست :

ــ هناك شىء واحد يجمع بيننا فى هذه الهموم .
تمتم وهو يبذل طاقة كبيرة للسيطرة على انفعالاته :
ــ انى مصغ اليك بكل جوارحى ..
ــ هذا الشىء هو حبنا لحمدون !
تراجع حتى ارتطم مؤخر رأسه بجدار الحقيقة الباردة وقال :
ــ طبعا ..
ــ تحدث أشياء غريبة فى بيتنا من شأنها أن تهدد حياتنا وعملنا ومستقبلنا ..
ــ ترى ما هى هذه الأشياء الغريبة ؟!
ــ هل سمعت عن « أبناء الغد » ؟
ــ أجل .
ــ بعضهم يتسللون الى شقتى من تحت البواكى كل ليلة .
ــ كيف ؟
ــ عقب عودتنا من المسرح والشرطة نائمة أو هكذا يتوهمون !
ــ لا أكاد أفهم شيئا .
ــ انهم متمردون على كل شىء ، ومطاردون .
ــ ومتهمون باغتيالات معروفة !
ــ هذه هى المسألة :
ــ أتعنين أن حمدون .. ؟
ولاذ بالصمت فقالت وهى تتنهد :

ـ نعم ، حسبت الأمر مجرد تعاطف قلبى ،
حتى اختاروا شقتنا مكانا لاجتماعهم ، وعبثا
حاولت منع ذلك فضلا عن اقناعه بالتخلى عنهم .
فتمتم عزت متفكرا :
ـ انه شيء خطير حقا ..
ـ لذلك ألجأ اليك ..
فتساءل فى حيرة :
ـ تعنين أن أفاتحه فى الموضوع ؟
ـ أعندك رأى آخر ؟ .
ـ ألا يغضب لافشائك سره ؟
فقالت بسرعة :
ـ لا يجوز أن يعرف ذلك !
ـ فكيف أفسر له معرفتى بالأمر ؟
ـ لا أدرى .. ولكن أبعد ظنه عنى !
نظرت فى ساعة يدها . نهضت وهى تقول :
ـ اعتمادى بعد الله عليك ..
وسرعان ما غادرت الحجرة .

١٦

تركته فى دوامة ، دوامة لا تبقى عضوا واحدا فى موضعه الطبيعى . الدنيا ألوان وأصوات وأفكار وملائكة وشياطين متلاطمة ، ثمل بالثقة ، تحفز للمساعدة · تحير طويلا · عبره طرب مجهول · وكان عليه أن يهتدى الى فكرة · وتعترض أفكاره صورة حمدون فى لباس السجن، أو فوق المشنقة · يقول لنفسه بصوت مسموع لا بد من خطوة لانقاذ الموقف · لا يجوز أن تهجر بدرية أو تترمل ، لا يجوز ؟ ·

عليه أن يكون عند حسن الظن به · عليه ألا يهمل واجبه · القدر أيضا لا يهمل واجبه ·

عند انتهاء الليلة قبل الختامية قال عزت لحمدون :

ــ أود أن أحتفل بالنجاح فى شقتك ولا أريد رابعا معنا !

بهت حمدون عجرمة وقال :

ــ لست الليلة على ما يرام !

ــ سوف ينعشك الويسكى ··

فتساءل مترددا :

ــ أليست شقتك أوفى بالغرض ؟

ـ ولكنها غير خالية !
ـ دعنا نر عشيقتك الجميلة !
فتساءل عزت باستياء :
ـ كأنك لا ترحب بى ؟!

★ ★ ★

ما كاد يستقر بهم المقـام فى الشـقة حتى دق الجرس • هـرع حمدون الى البـاب • عاد بعد دقائق وقد زايله التوتر • رفع عزت كأسه قائلاً :
ـ صحتكما •• أزائر فى هـذه الساعة من الليل ؟
فأجاب حمدون ضاحكا :
ـ طارق أضله الظلام !
شرب جرعة وهو يردد بصره بينهما ثم تمتم :
ـ لا تحاولا خداعى •
ـ خداعك ؟ !
ـ لا تحاولا خداعى •
تساءلت بدرية :
ـ ماذا ؟
فقال عزت بهدوء مخيف :
ـ انكما متهمان !
هتف حمدون شاحب الوجه :
ـ صارحنا بما فى نفسك •
فقال باقتضاب وثقة :
ـ أبناء الغد !

اشــتد اصفرار وجه حمدون ، غضت بدرية عينيها ، قال حمدون :

ـ لا.أفهم ٠

ـ بل تفهم كل شيء ٠

هبط صمت كالموت ولكنه لم يســتقر طويلا ، فتساءل عزت :

ـ أى خطر تعرضان نفسكما له ؟

سأله حمدون باهتمام :

ـ من أخبرك ؟

ـ شخص أثق به ٠

ـ الوغد !

ـ من تقصد ؟٠٠ انك لا تعرفه !٠٠ لولا ثقتى فى أمانته لحثثتك على الهرب ٠٠

ـ يوسف راضى !

ـ كلا ٠

ـ هو دون غيره ٠

ـ قلت كلا وأقسم على ذلك !٠ ومن أين له أن يعلم ؟

ـ انه معنا ضمن مجموعة أخرى ولكنه يعتقد أننى أصادر عبقريته !.

ـ أقسم لك أنه شخص آخر ٠

ـ من هو ؟

ـ لست فى حل من ذكر اســمه ، سأخبرك به

ذات يوم عنـــدما يحلنى من قسمى ، لا أهميـــة لذلك ، كيف تورطتما فى ذلك ؟

فقال حمدون بضيق :

ــ لا علاقة لها بالأمر ٠

وقالت بدرية :

ــ لا أهتم الا بالمسرح ٠٠

فقال عزت مخاطبا حمدون :

ــ ليتك كنت كذلك ٠٠

ــ لا حيلة لى فى ذلك ٠٠

ــ طول عمرك تشغل نفسك بأمور لا تهم أحدا ٠

ــ لا تهم أحدا ؟!

ــ لن أجادلك فى ذلك ، أريد فقط أن أعلم هل تستمر هذه الاجتماعات المريبة ؟

فلاذ حمدون بالصمت فقال عزت :

ــ نحن صديقان وأكثر من شقيقين ، لنا حياة مشتركة ، لم نكد نبدأ بعد ، أمامك مستقبل باهر، لا زواج بين الفـــن والجريمة ، عليك أن تنقــذ نفسك قبل ألا ينفع الندم ٠٠

★ ★ ★

ورجع الى حدائق شبرا وهو يقــول لنفســه ما كنت أتصور أن الملائكة والشياطين يتجاورون فى وطن واحد !

١٧

فى غمار الدوامة ، فى الليـلة التالية ــ وهى الليـلة الختامية ــ رأى خالتـه أمونة وكريمتها احسان وشابا مجهولا يدخلون مسرحه · تلاقت الأعين فتقدم للمصافحة ، مقابلة فاترة ، ولكنه تعرف بعـريس بنت خالتـه الذى دعا حمـاته للمشـاركة فى نزهة احتفاء بشهر العسـل · لم يغب عنه أن مهنته الجديدة ستعرف على حقيقتها فى الدار والحارة وستلوكها الألسـن كنادرة من النوادر · وكانت فكرة زيارة الأسرة تعابثه من آن لآن فعدل عنها بقرار نهائى رغم حنينه المتقطع لرؤية سمير · انتهى عزت عبد الباقى القـديم وحل محله رجل يميل الى البدانة ، ويمارس عمله فى بيئة تكتنفها الشبهات ، وقنع بأن يكلف عم فرج يا مسـهل ــ وهو أصـلا من أبنـاء الحارة ــ باستطلاع الأخبار وموافاته بالأحوال ·

★ ★ ★

وتحدد يوم ١٥ أكتوبر موعدا لافتتاح الموسم الشتوى بالكلوب المصرى · نفحه نجاح الموسم الصيفى بالثقة ، ولكن المستقبل تبـدى له رغم ذلك غامضا وأمدته أعمـاقه المنصـهرة بالحب

والأخيلة المفزعة بالريبة والقلق ، ولم يخل ببدرية في تلك الفترة الا دقيقة فسألها :
ـ كيف الحال ؟
ـ انتهت الاجتماعات ولكن ..
ـ ولكن ؟
ـ ولكن حمدون يمر بحال سيئة ..
وقال لنفسه حسن أن تنتهى الاجتماعات غير أنه ابتسم ساخرا . وثمة صورة كانت تلح على خياله ، صورة حمدون فى لباس السجن يصاحبها احساس بالألم يمجه الصوت الخفى الذى ينغص عليه صفوه .
وقال له يوسف راضى
ـ من المناسب أن تفتتح الموسم بروايتى .
فقال عزت مجاملا :
ـ سنفعل ذلك ذات يوم .
فقال الشاب :
ـ انى أفكر فى دعوة حمدون ذات يوم لأسمع رأيه وأدخل ما يراه ضروريا من التعديلات .
ـ خير ما تفعل .
وجرت مفاضلة فى شقة حمدون بين يوليوس قيصر ونديم السلطان . بأيهما يستحسن أن يكون الافتتاح . قالت بدرية :
ـ يوليوس قيصر هائلة ولكن دورى نافه .
فقال حمدون :

ـ لقد حفظت أقوال أنطونيو حبا واستحسانا ولعله من الطريف أن تمثلى دوره ٠

فهتف عزت :

ـ دور رجل ؟ !

ـ لم لا ؟ ٠٠ ستكون مفاجأة مثيرة ٠٠

★ ★ ★

ولم يتقرر شىء فى الاجتماع اذ جرت الأحداث بسرعة مذهلة ٠ فى اليوم التالى عثر على يوسف راضى جثة هامدة فى شقة صغيرة بالقبيسى يقيم فيها بمفرده ٠ نشرت الصحف الصورة والخبر ووصفت الجريمة بأنها وحشية وغامضة ٠

ارتعد عزت وانقلبت ساحة نفسه الى مسرح للأشباح المفزعة ٠ انه والشيطان الوحيدان اللذان يعرفان السر ٠ وجد الشيطان يقبع فى أعماقه ويشير ضاحكا الى حمدون٠ حمدون الذى قتل رجلا بريئا جزاء جريمة وهمية لم يرتكبها ٠ من الذى قتل يوسف راضى ؟ ليس حمدون وحده ، لكنه ـ عزت ـ وراء ذلك وبدرية أيضا ٠ يا لك من رجل خطير حقا يا حمدون ولكنك انتهيت ٠ انتهيت ٠٠ انتهيت ٠٠ انتهيت ٠ اليوم أو غدا أو بعد غد ٠ حضرة ٠ أنت الذى بادءتنى بالصداقة فى الكتاب ٠ أنت القضاء والقدر ٠ أنت الرجل المعجزة ٠ حضرة صاحب ٠ أين المفر من ذلك الصوت الذى يطاردنى ويكدر صفوى ؟،

ما ذنب البرىء الذى قتل غدرا وجهلا ؟ . وحتى متى يلازمنى الشيطان وهو يضحك ؟ . حضرة صاحب . فرصة . للتكفير فرصـــة . للجنـــون فرصة . للعذاب فرصة . للحب فرصة . لنقف أمام الميزان . حضرة صاحب السعادة . من أنت حتى تخاصم وتحاكم وتحكم . من أنت حتى تنفذ أيضـــا . دائما تصـــدر الاعدام على الآخرين : فعلت ذلك مرتين . فى كل مرة يهتف هاتف الغيب العين بالعين . أن أتحمل وقر اثمى فهو العدل . أن أتحمـــل اثم الآخر هو الجنـــون . حتى لو لم يخرج من العـــدم وجود فهى التجربة اليائسة . لا بد لضحكة الشـــيطان أن تسكت . أو فليقهقه حتى يرج الجدران . ترى فيم تفكر عين فى هـــذه اللحظة من الزمان . حذار أن يسنـــبقك الزمن . حضرة صاحب السعادة النائب العام .

١٨

فى الظاهر تستمر الاستعدادات للموسم الجديد لكن مصرع يوسف راضى هز الأفئدة هزة عنيفة · جميع أفراد الفرقة يعرفونه معــرفة شخصية · كاتب العقــود والمؤلف المنتظــر · قتـــل أمس والتحقيق ينقب فى كل زاوية · سئلوا جميعا ولم يعثر لديهم على شىء · ذهب حمــدون معهم · لم يبح عزت بهــاجس واحد من هواجســه · رجع بصحبة حمــدون وبدرية · لاذ حمدون بالصمت طيلة الوقت ·

قال عزت برثاء :

ــ يا للخسارة !

فعقب حمدون :

ــ أجل ، كان شابا · · ·

وكعادة النساء نشجت بدرية بالبكاء · وبدت الدنيا غريبة كأنما تخلق من جديد ولكن فى لون منفــر · مروا فى طريقهم بصــندوق البريد الذى تعامل معه أمس لأول مرة · ترى أغادره الخطاب أم لا زال ينتظر · عزت · · حمدون · · بدرية · صندوق البريد · · يا للوحشية يا بدرية · عندما لا نجد الا الشيطان كرسول للضمير الحى ! أرى

عين ناشرة المظلة لتتقى أشعة الشمس أتشرف بابلاغ سعادتكم ٠

★ ★ ★

فى عصر اليوم نفسه ، اقتحمت بدرية شقته بحدائق شبرا ، زيارة غير متوقعة ، متجلية التعاسة والاضطراب ، تنذر بالمخاوف ، الخطاب لم يصل بعد فماذا دهاها ؟ ٠ ارتمت على مقعد بحجرة الاستقبال وأغمضت عينيها من الاعياء ، وقف قبالتها مذهولا ، يهمس :

ـ خيرا ؟! ٠٠ ماذا حل بك ؟

تمتمت بيأس واضح :

ـ انه الخراب ٠٠

ـ بدرية ٠٠ ارمينى بما عندك مرة واحدة ٠

فقالت وهى تتنهد كمن يزفر آخر نفس :

ـ جن حمدون ، طلقنى ، ضربنى ، ذهب ليعترف بجريمة قتل يوسف راضى ٠٠

هتف متظاهرا بالانزعاج والعالم من حوله يتناثر ويتطاير :

ـ أى جنون ٠٠

ـ هى الحقيقة !

رأى فى وجهها دمامة لم يدر من أين أتت ، رأى امرأة أخرى ٠ قال :

ـ أريد أن أفهم قبل أن أجن بدورى !

نحت عينيها عنه وقالت كأنما تعترف للمجهول :
ـ انقلب حالى مذ علمت بمصرع يوسف ، اتجه ظنى نحو حمدون ، أدركت أن الرجل راح ضحية جريمة لم يرتكبها ، اجتاحنى رعب وشعور مفزع بأننى القاتلة الحقيقية .
ـ ذلك يعنى أننى شريك ولكنها محض أوهام .
ـ ليست أوهاما على الاطلاق ، يخيل الى أنك شاركتنى العذاب أيضا ، وعقب عودتنا الى البيت لاحظ حمدون تغيرى المطلق ، انهارت قوة احتمالى فصارحته بخوفى من أن يكون يوسف راضى قد راح ضحية جريمة لم يرتكبها .
قال عزت بأسف :
ـ اندفعت دون ترو .
ـ انفلت منى الاعتراف وأنا فى حال بائسة من الانهيار .
ـ كيف كان وقع ذلك فى نفسه ؟
ـ اكفهر وجهه ، استوضحنى ما أعنيه اعترفت له بأن يوسف راضى لم يفش سر الاجتماعات اليك وأننى أنا التى فعلت !
فقطب عزت واختفى وجهه تحت قناع غليظ من الكآبة . وتبدت هى مشدودة الى ذكرى مفزعة وطاغية ثم قالت :
ـ لا يمكن أن تتصور ما حدث ، لقد وثب من

مجلســه كالملدوغ ، صرخ ، تجلى الافــتراس فى ملامحه ، لطمنى لطمــة كادت تفقــدنى الوعى ، اتهمنى بالجريمة ، ومن شدة ألمى رددت اليــه التهمة ، صحت به : بل أنت القاتل !

تأوه عزت متسائلا :

ـ أهذا جزاء من يدفعه حسن النية الى انقاذ من يحب ؟!

وراح يضرب الجــدار بقبضـــته ، ويهــدد بالويل ، رمانى بالطــلاق ، اســتمر يعوى مثل وحش جريح ·· ثم ركز عينيــه على مليــا وقال بمقت شديد « أنت الجحيم أما أنا فقد انتهيت · » ·

وارتدى ملابســــه فى عجلة ولهــوجة وغادر الشقة وهو يقول :

ـ سأطلقك أولا ، ثم أسلم نفسى ··

هتف عزت :

ـ يا للتعاسة !

فانخرطت بدرية فى البكاء وقالت :

ـ تركتنى فى وحدة مرعبة !

انه يتردى فى نفس الوحدة المرعبة · لم تسرع بتحرير الخطاب الغفل من الامضاء ؟ · كأنما لم يكن له من هدف سوى تسجيل الخسة على نفسه ، سيعترف حمدون قبــل وصول خطابه بيــوم أو يومين · من العبث أن يمضى فى اقناع ذاته بأنه فعل ما يمليه عليه الواجب الانسانى · وها هى

بدرية حرة وحمدون يرسف فى الأغلال ، ألم يكن ذلك حلمه الملح ؟ ! • لكنه مريض وبدرية دميمة • والدنيا تعانى أنيميا حادة لا تصلح معها للحب ، قال بأسى :

ــ اغسلى وجهك ، اشربى قدحا من الشاى ، علينا أن نفكر بهدوء فى الكارثة ••

فنهضت وهى تقول متأوهة :

ــ انه لا يدرى كم أحبه !

١٩

عرف الآن أن حمدون عجرمة المؤلف والممثل هو قاتل يوسف راضى المحامى ، وأن الباعث على الجريمة هو ما لاحظه القاتل من غرام القتيل بزوجته • ذاع أيضا خبر الخطاب الغفل من الامضاء الذى اتهم حمدون بقتل يوسف • أعيد التحقيق مع بدرية فأكدت أقوال حمدون ولم تشر من قريب أو بعيد الى جماعة أبناء الغد • ولم تجد بدرية فى وحدتها المرعبة من أنيس أو معين الا عزت • زالت دمامتها الطارئة ولكن ثقلت ملامحها بأسى ثابت وعميق ، ورغم مرارة نفسه لم يفقد الأمل فى مستقبل قريب أو بعيد • واستمرت الفرقة فى أداء البروفات دون اشتراك

بدرية ، معيدة المسرحيات التى مثلتها فى روض الفرج · وتعمد عزت أن يشعر بدرية من أن لآن بأنه ما زال يمارس عمله كمدير · وكانت تعلم من ناحية أخرى بأنه لا مورد له الا العمل · لذلك تشجع ذات يوم وقال لها :

ــ علينا أن نبدأ العمل فى ميعاده والا عرضنا أنفسنا للافلاس ··

فتمنمت بضيق شديد :

ــ ما أبغض تلك !

ــ أشاركك الاحساس ولكن لا بد مما ليس منه بد ··

فقالت بحزن :

ــ نحن الآن بلا مؤلف ··

ــ ولكننا نملك رصيدا لا بأس به من المسرحيات فضلا عن التراث والروايات المترجمة ··

ــ انه خسارة لا تعوض !

ــ ذلك حق ولكن علينا أن نفكر فى كل شىء وفى المستقبل ··

وهنا قالت برجاء :

ــ أود أن أنجز عملا هاما قبل بدء الموسم ·

ــ ستجدين منى ماتتوقعين وفوق ماتتوقعين

ــ لقد قابلت محامى حمدون فأملنى كثيرا فى انقاذه من حبل المشنقة ·

ـ أرجو هذا فقد سلم نفسه وانتحل للجريمة عذرا مخففا ٠

ـ طلبت منه أن يبلغه رجائى فى أن يتزوج منى مرة أخرى !

فلم يدر ماذا يقول وهو يتلقى لطمة جديدة بلا رحمة ، أما بدرية فاستطردت :

ـ سيعيننى ذلك على مواصلة الحياة ٠٠

فقال بفتور :

ـ شىء عظيم حقا ٠

★ ★ ★

استعد عزت لافتتاح الموسم وهو يشعر بأنه أحقر شىء فى الوجود ٠ لم يخفف من شعوره ما علمه بعد ذلك من أن حمدون رفض طلب بدرية ، بل ورفض حتى مقابلتها ٠ وبدأ الموسم بنجاح متوسط ، ولم يخف عنه أن بدرية فقدت الكثير من سحرها المسرحى ، وتعاقبت الأيام لا تبشر بخير جديد ، وفى أثناء ذلك تمت محاكمة حمدون وقضى عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة ٠

وجاءه فرج يا مسهل ـ كالعادة ـ بأخبار الحارة فقال له لمناسبة الحكم على حمدون :

ـ لم يعطف عليه أحد فى الحارة !

فقال عزت بأسى :

ـ لعلهم يتمنون لى مصيرا مشابها !

ـ ست عين تدفع عنك بخيرها العميم نيات السوء ٠٠

ـ وما أخبار الدار ؟

ـ الست الكبيرة كعهدها ، هى هى لم تتغير ، أم سمير رفضت أن تتزوج من عليش النجار مفضلة البقاء مع ابنها ، سمير يتقدم فى الدرس بنجاح وذكاء ٠

وتذكر الحديقة وغرزة الحصن العتيق وسمير الذى سيشب جاهلا أباه ، ولكن فيم يفكر فى ماض انقطعت عنه أسبابه الى الأبد ؟

★ ★ ★

وقال لبدرية :

ـ ما رأيك فى أن أجرب حظى مع مسرحية المرحوم يوسف راضى ؟

فقالت بلا حماس :

ـ جرب ، الموسم حتى الآن غير ناجح تماما ٠

ـ وربما وفر لها اسم مؤلفها ـ الذى لم ينس الناس مأساته بعد ـ نجاحا اضافيا ٠

فقالت بدهشة وهى تبتسم :

ـ صرت حقا صاحب مسرح يا عزت !

فضايقته ملحوظتها وقال بشىء من الحدة :

ـ لقد صرت صاحب مسرح من أجلك ٠

ـ أجلى أنا ؟ !

ـ أعنى من أجلك وأجله ؟

فحدجته بنظرة معتذرة ولم تنبس ٠

وقد حققت المسرحية نجاحا ملحوظا أقال الموسم من عثرته ٠ ومضى موسم الشتاء بلا سرور ، ولكنه نجح نجاحا فذا فى موسم روض الفرج الجديد ــ وكان يسرف فى العمل كما يسرف فى كل شىء ولكن بلا سعادة حقيقية ٠ وظل الحب يطارده بلا أدنى أمل ٠ وسنحت فرصة ــ والفضل فيها لفرج يا مسهل ــ لتأجير مسرح الاليزيه بشارع دوبريه فاستأجره مدفوعا بروح المغامرة والآمال الغامضة ، وقال لبدرية :

ــ ها هى فرصة للعمل فى قلب المدينة ، آن لك أن تلمعى كنجمة حقيقية ٠

٢٠

أنفق فى الاستعداد للموسم الجديد مالا كثيرا، والاليزيه مسرح حسن بناء وموقعا وقد كان مغلقا من أعوام بسبب اختلافات بين الورثة حتى استحقه بحكم قضائى الخواجا بنيامين فكان عزت أول مستأجر له فى حياته الجديدة ٠ شعر بأنه أصبح صاحب مسرح بالمعنى الدقيق للكلمة وأنه سيعمل بكل فخار فى مجال رمسيس والأزبكية وبرنتانيا ٠ أجل لم يوفق الى ضم ممثل أو ممثلة

ذات شأن الى فرقته ولكنه كان شديد الثقة ببدرية، ومضى يحلم بنجاح مرموق حتى ليلة الافتتاح · واذا به يتلقى صدمة باردة فيرفع الستار عن صالة ثلاثة أرباعها خالية · اعتقد بادىء الأمر أن فرقته غير مؤهلة للنجاح فى وسط المدينة ولكن أنباء ترامت اليه عما تعانيه المسارح جملة من فتور وانكماش · وما كان بوسعه الا أن يستمر ولعل النجاح الوحيد الذى قسم للفرقة كان من نصيب بدرية اذ تقدم لخطبتها تاجر ثرى ! · عرف ذلك عن طريق فرج يا مسهل وليس عن طريق بدرية فضاعف ذلك من آلامه المزمنة ·

وانفرد بها فى حجرة الادارة فى جو ثقيل من الخيبة وفى نيته عزم على التحدى · قال :

ـ الحال كما ترين · ترى ماذا يحسن بنا أن نفعل ؟

فقالت بحزن :

ـ يحسن بك ألا تستمر ·

ـ الجميع يخسرون ·

ـ هذا أدعى للأخذ برأيى ··

ـ هل نرجع الى الكلوب المصرى وروض الفرج ؟ ·

ـ اذا شئت ··

فقال بارتياب :

ـ لست متحمسة ··

ـ لا شيء يدعو الى الحماس ٠
فتساءل بارتياب أشد :
ـ وماذا عن مستقبلك ؟
فغضت بصرها ولم تنبس فسألها بصراحة :
ـ أحقيقى ما سمعت عن رجل يطلب يدك ؟
فأجابت بهدوء دون أن ترفع عينيها :
ـ نعم ٠
ـ عجيب أن يجيئنى الخبر من آخرين !
فندت عنهـا حركة تنم عن ضيق ولكنهـا لم تتكلم ٠ قال :
ـ وهو خبر غير معقول ٠
ـ لماذا ؟
ـ ألم تبدى استعدادا لانتظار الآخر ربع قرن من الزمان ؟
ـ لم يدر بخلدى الفشل ٠٠
ـ وهل حقـا ما يقـال من أن الرجل يكبرك بثلاثين عاما ؟
ـ يحدث ذلك ٠٠
ـ لعلك خفت عواقب الكساد ، ولكن ما تزال أمامنا فرص ٠
فحدجته بنظرة واضحة وقالت :
ـ المسـتقبل غامض ، أريد أن أحافظ دائمـا على كرامتى ، ثم انى وحيدة ٠٠
فقال محتجا :

ـ لا ‥ لا ‥ لست وحيدة ‥
وتبادلا نظرة طويلة ثم مضى يقول :
ـ لست وحيدة ، ذلك قول أعتبره جارحا لى ٠
ـ أشكرك ولكنى أبحث عن حل دائم ومعقول ٠
ـ هنالك حل أجمل ‥
ـ حقا ؟
ـ أن نتزوج !
فتفكرت قليلا ثم تساءلت بنبرة لم تخل من سخرية :
ـ بدافع العطف ؟
فقال بحدة واصرار :
ـ بدافع الحب ٠
ـ الحب ؟ !
ـ الحب القديم والجديد ٠
فقالت وهى ترمقه بنظرة ممتعضة :
ـ انه لخبر جديد !
ـ لولا غبار الأحداث لرأيته من زمن ٠
ـ أكان موجودا وحمدون معنا ؟!
فانكمش انفعاله وسقط فى الرماد ولم يدر ماذا يقول ٠ وبعد فترة من الصمت الخانق وجد منفذا للخلاص فقال :
ـ عاد الحب فى أثناء وحدتك !
ورجع الصمت كرة أخرى مشحونا بالريبة وعدم التصديق ، نفخ متحديا وقال :

ـ من الغباء أن نعتذر عن الحب !
فسألته بمرارة :
ـ من الذى أرسل الخطاب الى النيابة ؟
انخلع قلبه فزعا · لم يتوقع أن يجرد من ثيابه بجذبة واحدة · أدرك ما تعنيه ولم يكن نسى شيئا · ولكنه تساءل متجاهلا :
ـ أى خطاب ؟
ـ أنت تعرف قصدى ، وجهك يشهد بذلك ··
ـ ماذا تقصدين ؟
ـ أنت الذى أرسل الخطاب ··
ـ انك لمجنونة ·
ـ ولكنه الحق ·
ـ انه الوهم ، ثم أنسيت أنه اعترف قبل وصول الخطاب ؟
فقالت ببرود :
ـ ولكن الخطاب كتب وأرسل ··
ـ تحقيق سخيف لا يقوم على أساس ·
فقالت بهدوء :
ـ الزواج الذى تقترحه يعنى التمادى فى الاجرام ، منك ومنى أيضا ··
فقال بعنف :
ـ المسألة أنك لا تحبيننى !
ـ هذا صدق أيضا ، أنا لم أحب فى حياتى سوى حمدون ··

ـ ولكنك لن تتزوجى من ذلك الرجل ٠
ـ هذا شأنى ، ولا خيار لى ٠
فقال بغضب :
ـ سأمنعك ٠٠
فقالت وهى ترفع منكبيها ، ثم مضت وهى تقول :
ـ أستودعك الله ٠

٢١

ذهبت بدرية ٠ توقف العمل ٠ أطفئت الأنوار لم يعد صوت يجلجل بخير أو بشر ٠ تقوض عالم الخيال ٠ تبخر سحره ٠ ران الأسى على كل قلب ٠ لن يراها وهى تمرح فى طيلسان الجارية ٠ لن يسعد بابتسامة الثغر ٠ ولا بعذوبة الصوت ٠ نظرة متحجرة رافضة آخر ما أهدته ٠ وداع الاثم الضنين بالدموع ٠ اذا هلت طلعتها فهى خيال المحروم ٠ كتب على جوانحه أن تتعذب بالحنين العقيم ٠ أن يتذوق الألم كتمرزالمخمور٠ أن ينادى الغيب ليصد عنه سخريات الغيب ٠ ملعون يوم رأيتك ملعون يوم رجعت اليك ٠ ويوم ماكر شرير يوم لمحتك فى الكتاب ٠ حين قدر البؤس على الوجيه المدلل ٠ حين تواثبت العصافير فوق

الغصون محذرة • ومضت عين بحماقتها تكفر عن حماقات البشر • وتلقى من الحصن العتيق ثورة ولكن بقلب طفل غرير • وشـهد المجاذيب والمسـاطيل بجمـالك يا بدرية • وها هو ضغط الحياة لا يسـمح للمحزون بأن ينعم بالحزن • مضى يصفى عمله ويتخلى عن رجاله بألم بالغ • لم يبق معه من ماضيه القريب الا فرج يا مسهل• وحتى هذا قال له :

ــ آن لك أن ترجع الى دارك العامرة •

كيف يرجـع بالخيبـة والجريمـة والحب الضائع !!• قال :

ــ فات الأوان ••

ــ مكانك هنـاك ، سـتجدنى فى خدمتك ، لقد خلقت للوجاهة والعز •

ــ تريد أن ترجعنى الى البطالة والغم ••

ــ بل الى الوجاهة والزواج ثم الحج الى بيت الله !

فقال باسما :

ــ انى الآن فى زمن العـذاب ، فى عمـر قادم سأعمل بما يناسبه ، أليس عندك رأى آخر ؟

سرعان ما تحول الرجل من أقصى طـرف الى أقصى طرف ، سأله :

ــ هل عندك مال موفور ؟

ــ نعم •

ـ عظيم ، حول المسرح الى ملهى ليلى ، فهذا زمن الملاهى !

ـ ألك خبرة بذلك يا مسهل ؟

ـ الحمد لله ، سيبقى المسرح كما هو ، تتغير الصالة ، البوفيه يكبر ، أما البنات وخلافه فدع أمرها لى ..

أدرك أنه يغوص فى أعماق مظلمة . لم يفزع ولم يتردد . ألقى بنفسه فى تيار الاستهتار وكأنما ينتقم من عدو مجهول . وراح يا مسهل فى تفكير عميق وهو يقول :

ـ ربحه مضمون .

★ ★ ★

انهمك فى تحويل المسرح الى ملهى ليلى . جاء البناءون والنجارون جرى الاتفاق مع الفتيات والجرسونات والعازفين . مثل الادارة خير تمثيل ببدانته المتزايدة وحزمه المكتسب وانتقل من شقة حدائق شبرا الى شقة بشارع دوبريه نفسه . وزود نفسه بما تشتهيه من طعام وشراب ومخدر ونساء . صمم على نسيان بدرية كما نسى عين من قبل ، وأن ينسى كذلك جريمته . وجعل يقول لنفسه انه ما فعل الا أن أرشد العدالة الى قاتل . ورغم ذلك لم يستطع أن يبدد سحب الكآبة ولا أن يسكت صوت النكد الخفى .

★ ★ ★

وعلى فترات متباعدة من الزمن تجيئه أخبار الحارة فتثيره وتنعشه . يجد فيها جديدا وسط لياليه المفعمة باللهو والطرب والرقص والعجائب . أمه تطعن فى السن ولكنها لا تفقد حيويتها ونشاطها الدءوب على الخير . تمضى متوكئة على المظلة أو ناشرة اياها من درب الى درب ، ومن بيت الى بيت ، وقد أضفى الخيال عليها بركة وقداسة ، وسلم أخيرا بالاعجاب بها بلا حدود ، فالعمر الطويل الذى يتحدى الزمن بنشاطه وقدراته مما يستحق الاعجاب والتقدير . انها مصممة على الخلود والشباب . وسيدة أصبحت وكأنها صاحبة الدار وبخاصة بعد وفاة أمها . أما سمير فانه يشق طريقه بنجاح خليق بأن يكفر عن سقوط أبيه ، وها هو يتأهب لدخول مدرسة الهندسة ، وكما يخلق من ظهر العالم فاسد يخلق من ظهر الفاسد عالم .

وربما تساءل أحيانا عما جرى لبدرية . وقد تكفل الزمن باعدام حبه هذه المرة حتى الموت وليس كالمرة الأولى . انه يدرك الآن أن كل شىء يموت وأن ما يلزمنا حقا هو شىء من الصبر عند الملمات . لعلها اليوم أم محجوبة وراء الأستار أو لعلها أرملة ، أو لعلها مطلقة وشريدة . ماذا يهم ؟ ما هى الا مجرمة . هى قاتلة يوسف راضى . هى دافعته الى الخيانة ، هى مرسلة حمدون الى

التأبيدة · ماذا بقى من جمالها ؟ · أى شىء هذا الجمال الذى يعيش بضع سنين ؟ · ولكن كتب على الانسان أن يتعذب بلا سبب ، ولولا الطعام والشراب والمخدر لفسدت الأرض ·

★ ★ ★

وتمر أعوام أيضا · تتراكم أرباحه ، تزداد بدانته ، ترمقه الأعين بالحسد ، يجد فى الهروب من الألم والكآبة · آمن بأن السعادة هى التخفيف من الألم المحتوم ، وأن الانسان يتألم لسبب فاذا لم يجد السبب تألم أوتوماتيكيا · وذلك الملل الخفى الذى يتبعه كما يتبع الصوت عجلة العربة بلا تحديد لمصدره · أما أسعد الأوقات حقا فهى وقت النوم العميق · وانه ليرنو الى الضاحكين بارتياب حتى خيل اليه أن ملهاه الليلى ما هو الا بؤرة للمجانين والتعساء · ترى هل تنتهى هذه الحياة بخراب فناء شامل ؟ ! · وعجب كيف أنه لا يعرف فى دنياه من يأنس اليه الا فرج يا مسهل·

وأيقظه أرق فى الهزيع الأخير من الليل · جاش صدره بالعواطف الحزينة الغامضة · قرر فجأة أن يستدعى ابنه ليراه ·

انتظر فى شقته الأنيقة ضحى يوم الجمعة · لم يتصور أن يتخلف عن الحضور · وحتى لو وقع المحذور فليتحمل ما جنت يداه ·

« عزيزى سمير ··

لا تدهش · كاتب الخطاب هو أبوك · سوف تتساءل أبعد ذلك العمر ؟ لكنك لم تعرف أعماق حيـاتى حتى يحق لك الحكم على · أبوك يدعوك الى مسكنه (عمارة ٣ ، شارع دوبريه ، شقة ١٤) صباح الجمعة القـادم (١٤ مارس) · ما كان يجوز أن نفترق ذلك الزمن الطويل ونحن فى مدينة واحدة · الأسباب كثيرة ولعـلك سـمعت الكثير ولكنك لا تعرف كل شىء · انى والدك على أى حال· من الواجب أن نتعـارف · سيسعدنى جـدا أن أقابلك ·

« عزت عبد الباقى »

لن تمنعه من الزيارة أمـه ولا جدته · ارتدى البيچاما والروب ، حلق ذقنـه بعنـاية ، سوى شـاربه ، مشط شـعره ، تطيب ، انتظـر · وفى الساعة العاشرة دق جرس الباب · انتقل الرنين الى قلبه ، هرع بجسمه البدين الى الباب · فتح ،

رأى شابا لم يشك لحظــة فى هويته · خفق قلبه كما لم يخفق من قبــل · فتح ذراعيــه · أخيرا تلاقى الأب والابن وتعانقا ·· مضى به الى حجرة الجلوس · جلسا على فوتيلين متقابلين وراء باب الشرفة المغلق · بينهما خوان عليه طبــق سمح متعدد الثغرات ملىء بالفواكه والنقل والشيكولاتة ودورق ماء ، وقارورة اسباتس وقدح ذو حامل فضى · راحا يتبادلان النظر فى اهتمام وانفعال وعلى شفتى كل منهما ابتسامة متألقة ترتعش فى شىء من الارتباك · سره أن يراه رشيق القامة مع ميــل الى الطــول ، وأن يرث عينى « عين » الجميلتين وأنفهـــا الطويل الســـامق وجبينها المرتفــع · يا له من شـــاب مليح عامر بالحيوية والذكاء ·

وقرر انهاء الصمت فقال :

ــ انى سعيد جدا برؤياك ·

فأجاب بصوت ذكره بصوت سيدة :

ــ وانى لأسعد يا أبى ··

وهو يضحك :

ــ لا شك أنك تعرف عنى أشياء ، لعلهــا غير سارة ، أنا أيضا أعرف عنك الكثير ، عندى من يوافينى بالأخبار ، ومن ذلك تدرك أننى لم أتناس الأهــل والمكان · ولكن لنــدع جانبــا ما يعــكر الصفو ، ولندافع عن سعادتنا المشتركة ما أمكن

ـ خير ما نفعل ٠
ـ أنت طالب فى الهندسة ؟
ـ أجل ٠
ـ وناجح فى دراستك فيما بلغنى ؟
ـ أملى كبير فى بعثة الى الخارج ٠
فأشار الى الخوان يدعوه الى تناول شىء وقال :
ـ هائل ! أبوك لم يحب الدراسة ولم يوفق فيها ، وتسليتى فى قراءة قصص الجريمة ، لكن الزمن يجىء دائما بالأحسن ، كل واشرب ، ثم حدثنى عن حياتك ٠
فقال وهو يصب الاسباتس فى القدح :
ـ دراستى هى شغلى الشاغل ، فى العطلة أمارس الرياضة والمطالعة ٠٠
ـ لا تلمنى اذا لم أسألك عن أمى أو أمك فانى أعرف عنهما كل شىء ، ماذا تطالع ؟
ـ موضوعات شتى ٠٠ سياسة ٠٠ أدب ٠٠ دين ٠٠ وأحب السينما كذلك ٠
وهو يضحك مرة أخرى :
ـ والمسرح ؟
فعصر عينيه من الدموع التى بعثتها الغازوزة متجاهلا السؤال فقال عزت :
ـ لذلك أفلست المسارح ، وهل تهتم بالسياسة ؟

ـ الجيل كله يهتم بها ٠

فغشيت عينيه نظرة جادة وتمتم :

ـ للسياسة مآسيها !

ـ أحيانا ٠

فقال عزت معاودا المرح :

ـ لن أنصحك بشيء ، أتدرى لماذا ؟ ، لأننى ما عملت بنصيحة أحد !

فقال سمير بحبور غمره من خلال ألفة متزايدة :

ـ طالما تشوقت لرؤياك ٠٠

ـ ولم لم تشبع أشواقك ؟

ـ خيل الى أنك لا تهتم برؤيتى

ـ تخيل خاطىء مائة فى المائة ولكنك لا تعرف كل شىء ٠٠

وقدم له برتقالة ثم سأله :

ـ لم يكن لى أصدقاء كثيرون ٠ وأنت ؟

ـ لى كثيرون منهم ، فى الحارة والمدرسة ٠٠

ـ ولا شك أن علاقتك بأمك وجدتك جميلة ؟

ـ على خير ما يرام ٠

ـ أيهما أحب اليك ؟

فابتسم وقال :

ـ الأم هى الأم ولكن سحر جدتى لا يقاوم !

ـ انها العجيبة الثامنة فى الدنيا ٠٠

ـ كيف هان عليك أن تهجرها ذاك العمر كله ؟

وقال لنفسه ان ابنه لم يعرف الضجر ولا الألم بعد ، واذا به يقتحمه متسائلا :

ـ هلا حدثتنى عن حياتك العاطفية ؟

فارتبك سمير وبدا عليه أنه لم يفهم فرحمه أبوه وسأله :

ـ يهمنى أن أعرف أأنت سعيد ؟

ـ أعتقد ذلك ٠

ـ فى ذلك الكفاية ، أرجو أن تكون سعيدا حقا ٠

ـ أعتقد ذلك ٠

ـ عظيم ، استمتع بوقتك فالحياة لا تبقى على حال ٠

فتفكر الشاب مليا ثم سأله :

ـ وكيف حالك أنت يا أبى ؟

ـ ناجح والحمد لله ٠

ـ أعنى أأنت سعيد ؟

فضحك عزت عاليا وقال :

ـ أعتقد ذلك !

ـ لدى سؤال ولكنى أهاب طرحه ٠٠

ـ صارحنى بما تشاء ٠٠

ـ أأنت متزوج ؟

ـ ماذا يقولون هناك ؟

ـ يقولون انك متزوج ٠٠

ـ ومن الزوجة التى زعموا ؟

ـ بدرية المناويشى !

فضحك عزت مداراة لانفعاله وقال :

ـ أتزوج من امرأة الصديق السجين ؟ ! ··
هل تصورت أن أباك يرتكب فعلا خسيسا كهذا ؟

فقال سمير مرتبكا :

ـ ربما كانت الشهامة لا الخسة هى ··

فقاطعه قائلا :

ـ أبوك لم يتزوج ولم يفكر فى الزواج ·

ثم وهو يعاود الابتسام :

ـ وماذا تعرف عن عمل أبيك ؟

ـ صاحب ملهى ليلى ·

ـ ترى ما رأيهم فى ذلك ؟

فقال سمير ضاحكا :

ـ انك أدرى بأهل حارتنا !

ـ وأدرى بجدتك أيضا ·

ـ ولكنها تحبك دائمـــا ، لا يمكن أن تتصور
كيف كانت فرحتها بخطابك !

ـ وأنت يا سمير صارحنى برأيك فى عملى ··

ـ انه عمل شريف يا أبى ·

ـ لعلها اجابة مدرسية !

ـ ولكنها صادقة ··

ـ ألا يسيئك أن يعلم بها زملاؤك ؟

ـ انهم يعرفون !

ـ أنت ولد شجاع ·

ـ بل أنت الشجاع يا أبى ··

ـ حقا ؟ !

ـ تفعل ما تشاء دون اكتراث لآراء الناس !

وتبادلا نظرة باسمة وغامضة ، وتساءل عزت ترى ألم يكن يفضل أن يجد أباه أقل بدانة وأنظف عملا ؟! • وشعر بأنه ما زال عند أول درجة من درجات التعـارف • وأن الكلفة لم ترفع بعـد بينهما ، قال :

ـ لا يجوز بعـد اليوم أن تغيب عنى طويلا ، سأنتظرك كل جمعة ••

فقال سمير معتذرا :

ـ أعدك بذلك ولكن بدءا من العطلة الصيفية •

تلقى أول خيبة ولكنه قال :

ـ أجل ، الامتحان يقـترب ، فليـكن ، وعلى فكرة لقد أعددت لك غداء طيبا !

٢٣

بدخول سـمير فى حيـاته تغير تركيبها بعض الشىء • على أى حال لم تعد كما كانت • وتوثقت العـلاقة بينهما فى الصيف فتحولت الى معاشرة على مستوى رفيـع • فاز بسعادة صـافية يوم الجمعة ، وأغدقت عليـه ذكريات عـذبة بقيـة الأسبوع • ومنه عرف أنه يحب طالبـة بكليـة

العلوم تدعى رجاء وأنه سيعلن خطبته فور انتهائه من الدراسة فسعد عزت بالخبر · رحب بالحب الموفق واعتبر نفسه مشاركا فيه على نحو ما · هنأ ابنه على التوفيق الذى حرم منه طيلة عمره · ترى كيف كانت تكون حياته لو تزوج من بدرية يوم رغب فى ذلك ؟ · أى حياة نظيفة ومستقرة أفلتت من كليهما ؟! · ترى ألا تخطر لها مثل هذه الخواطر أحيانا ؟ أما الذى أزعجه حقا فهو اهتمام ابنه الواضح بالسياسة · أصبحت السياسة مقرونة فى ذهنه بالخيانة والجريمة والضياع · قال له مرة :

ــ السياسة شديدة الخطورة يا سمير ·

ــ ألم تشغل بالك أبدا ؟

ــ كلا ·

ــ وتظن أنه لذلك توفرت لك السعادة ؟

خطف منه نظرة فقد حسبه يسخر منه ولكنه وجده جادا بريئا · قال متهربا :

ــ لقد قضت السياسة على صديقى الوحيد فى هذه الدنيا ·

ــ حمدون عجرمة ؟

ــ أجل ، أسمعت عن جماعة أبناء الغد ؟

ــ طبعا ·

ــ انها لمأساة حقا ·

فقال سمير باسما :

ـ ومأساة أيضا ألا نهتم بالسياسة ٠
ـ كان يردد ذلك ، ألا يكفيك أن تكون مهندسا ورب أسرة ؟
ـ لا هندسة ولا أسرة بلا سياسة !
ـ مرحى ٠٠ مرحى ٠٠ يوجد ما هو أهم ٠
ـ حقا ؟
ـ يطيب لى فى أوقات فراغى النادرة أن أتساءل عن معنى حياتنا !
ـ ولكن السياسة تعطيك الجواب !
فضحك عزت عاليا وقال :
ـ لا فائدة ، ولكن معذرة فقد أصبحت من رجال الماضى !
ـ ما زلت شابا !
ابتسم عزت بمرارة ٠ ابنه لا يدرى ماذا يقول ٠ لا يرى هذا الكرش ٠ ولا هذه التجاعيد المبكرة تحت عينين أضناهما السهر والشراب والمخدر ٠ ولم يعرف شيئا عن الخطاب الغفل من الامضاء ، ولا عن احتقار المطلقة المهجورة له وايثارها لحيوان طاعن فى السن ٠ وعاد يسأله :
ـ وما الهدف من السياسة ؟
فأجاب بعد تفكر :
ـ هو هدف كل انسان ، السعادة !
ـ ولكن للسعادة سبلا أسهل وأقل خطورة ٠

ـ لا أظن ، نادرا ما يحقق انسان ذاته وسعادته مثلك !

فقال بحدة غير متوقعة :

ـ لا تضرب بى المثل من فضلك !

وتذكر أمه فى اصرارها الأبدى وجولاتها الخالدة فقال ان الولد سر جدته ، كلاهما مصاب بجنون واحد ولكنه فريد فى نوعه ٠ أما حياته هو فهى السعى الدائب نحو سعادة لا تريد أن تتحقق ٠ وقد وهب الصحة والمال والنجاح والمرأة ويعيش مطاردا بقوة ماكرة خفية ٠ وقال بنبرة جديدة مستسلما :

ـ أتدرى يا بنى ، يبدو أن أكبر خطأ نرتكبه فى حياتنا هو الاعتقاد بأن الهدف هو السعادة ٠

فسأله سمير ببراءة :

ـ فما البديل ؟

فقال فى حيرة وهو يضحك :

ـ لا أدرى ٠

ـ ولكنك خبرت الناس والحياة ٠٠

ـ لا أرى فى الملهى الا السفهاء والمجانين ٠

فضحك سمير فى حبور فاستطرد عزت :

ـ لعل النقص يكمن فى أننا نمر بفترة انتقال٠

ـ أجل ان وطننا ٠٠

ولكنه قاطعه قائلا :

ـ أعني الانسان ، انه قادر على ادراك تعاسته ..
ـ الأمر سهل ، ما علينا الا أن نزيل أسباب الشقاء !
فارتفع صوته وهو يقول :
ـ صديقى حمدون فقد حياته وهو يفعل ذلك .
ـ ان التضحية .. حسن ، لا بد أنك تسلم بقيمة التضحية ؟
فأجاب ضاحكا :
ـ كلا ، انها حماقة لا يبررها الا الجنون .
ولما انفرد بنفسه عقب ذهاب سمير قال :
« آه لو أجد الشجاعة للاعتراف بخطيئتى ! » .

٢٤

تخرج سمير مهندسا . أعلنت خطبته على رجاء . اختير لبعثة مدتها عامان فى انجلترا . دعا عزت ابنه وخطيبته للاحتفال بهما فى شقته . أعجبته الفتاة . غزاه جو الخطبة حتى الأعماق ـ حن فجأة الى حياة زوجية مستقرة . وجد فى حنينه المباغت فكرة جديدة ، ماكرة ، ولكنها قوية آسرة . لكن أى عروس تناسب رجلا فى

سنه ؟ · ان نفســه تعاف النســاء اللاتى يزرن شقته من آن لآن · يريد أن يرفع النقاب الأبيض عن وجه برىء فى ميعة الشباب · لعل ذلك آخر ما ينتظره من سلسلة المغامرات الجنونية · وهبط عليه الالهام الذى يســبق الاقدام · انه يتذكره وهو به خبير · غير أن ينابيعه جفت وهو يودع سمير · قبله وهو يقول :

ـ ليس من اليسير أن أصبر عامين ·

وخلت دنيــاه من الكائنات والحيــاة · كما خلت يوم اختفــاء بدرية ، ومن عجب أنه توثب رغم ذلك لتحقيق حلم الزواج الطارىء ·

★ ★ ★

يقول الراوى :

ان الحوادث لم تمهله ، كعادتها معه دائما · تجىء اذا جاءت منقضة كأنما لتفرغ من مهمتها فى أقصر وقت · فذات صــباح جذب بصره هذا العنــوان فى الجريدة « القبض على فرع لجماعة اخوان الغد » · ولأســباب تاريخية ليس الا ·· سرت فى بدنه رعدة شــديدة واجتــاحه شــعور بالتشاؤم عميق · وقرأ التفصيلات باهتمام مركز لا يتفــق وما عرف عنه من لا مبــالاة ازاء ذلك النوع من الأخبار · انه يتابع الأخبار هذه المرة وكأنما هو عضو فى هذه الجماعة المخيفة ، وكأن

من قبض عليهم من الشبان أقرانه ، وما ضبط من منشـــورات هو شريك فى تحريرها وطبعهـا وتوزيعهـــا • ونشر خـبر القبض على الفــرع باعتباره أول نصر يحققــه جهـاز الأمن فى ذلك المجال ، وأنه الخيـط الذى سـيؤدى حتمـا الى أوكار الجمـاعة حيثمـا وجدت • ومضى يهش الذكريات المعتمــة عن خيـاله المريض ، ويلعن الضعف الذى اعتـور أعصـابه • ولكنه تابع الأخبار يوما بعد يوم حتى صدر البيان الرسمى عن الموضـوع • لقـــد قبض عـلى الكثيرين ، والمطاردة جادة فى ادراك الهاربين • واذا بالبيان يشير الى حقيقــة جديدة ما ن اطلع عليهـا حتى تردى قلبــه فى هــاوية •• بل ندت عنــه صرخة مدوية فى شقته الخالية • ثمة كلام عن سمير عزت عبد الباقى • عضو البعثة الهندسية بانجلترا • الذى هــرب من انجلترا فى اللحظة المنـاسبة الى مكان مجهول • راح يتمشى مهرولا بجسمه البدين ويتساءل فى ذهول « سمير عضو فى جمعية أبناء الغــد ؟! سـمير هرب الى مكان مجهول ؟! هــل يختفى ســمير الى الأبد ؟! هل يلتهمه الضـياع والتشرد فى الغربة ؟• ها أنت تنتقم منى ياحمدون عجرمة • انى خبير بهذه الألاعيب القاتلة التى تصادفنا ونحن نجد فى سبيل السعادة ! • عزت

وسيدة وعين ينصهرون فى بوتقة تعاسة واحدة ٠ يا لها من ألاعيب قاسية مجنونة يحركها شيطان ساخر ٠٠ وشرق بالدمع فجفف عينيـه بالمنديل الحريرى المطـــرز ركنه بالحرفين الأولين مــن اسمه ٠ وقال له فرج يا مسهل معزيا :

ـ حظه على أى حال أســعد من الذين قبض عليهم ٠٠

ـ لا أدرى ٠٠ انى واثق من شىء واحد فقط وهو أننى لن أراه مرة أخرى فى هذه الحياة ٠٠

فقال الرجل بتسليم :

ـ لا يعــلم الغيب الا الله ٠٠ هلا زرت الست الكبيرة ؟

خطر له هذا وهو غارق فى حزنه ٠٠ أن يزور عين وسيدة ٠٠ ولكنـــه سرعان ما نبذ الفكرة فى غضب ونفور ٠ ليس الوقت بالمناسب للتمثيــل والحركات البهلوانية ٠ انه يعلم الآن بمـــا قدر عليه ٠ أن يقلع عن أحلام السعادة السخيفة ، أن يتسول رؤية لن تتحقق ، أن ينفذ حكما بالأشغال الشـــاقة المؤبدة وهو قائم بين السكارى وطلاب اللذة ٠

★ ★ ★

وزحف عليه تعب من نوع جديد شمل الرأس والأعضاء ٠ وعانى من صداع لم يعرفه من قبل

ربما كانت الفائدة الوحيدة لذاك الألم الوحشى أنه أجبره ــ ولو الى حين ــ على تناسى أزمته الأبوية ، وألا يفكر فى شىء سواه · ولأول مرة يقصد عيادة طبيب · واكتشف أنه يعانى من ارتفاع كبير جدا فى ضغط الدم · وعملا بمشورة الطبيب وافق على دخول مستشفى الجمعية الخيرية الاسلامية ليظفر برعاية متصلة حتى يزول الخطر · وهدف العلاج الى تخفيض الضغط وانقاص وزنه عشرين كيلو على الأقل · وأشرف فرج يا مسهل على الملهى ، وكان يزوره باستمرار ، وكان يقول له :

ــ دعنى أخبر الست عين ·

جعله هذا الاقتراح يستشعر الخطورة ويفكر فى الموت · تخيل عين جالسة مكان فرج يامسهل · كلا انها لن تفارق الفراش · سينهال عليه سيل فياض بالدعوات المباركات والآيات الشريفة · ستقول له آن لك أن تغير حياتك ، ستقول له أيضا انى أعرف سر هذا الشقاء كله · ورغم حنينه الطارىء المستفحل بالرقاد والتفكير فى الموت فانه لم يستسلم ·

قال :

ــ لا تخبر أحدا ، لا عين ولا أحدا فى الملهى ··

ــ ترى ذلك ؟

ـ نعم ٠٠ نفذ بكل دقة ٠٠ لا عين ولا أى راقصة ولا أى قواد !

وأخذ يتلقى التحذيرات عن البدانة والطعام والشراب ، تهاوت الحصون التى يحتمى بها من الحياة وأطوارها الغريبة ٠ يجردونه من أسلحته ، ويتحالف المرض مع العقوبات المفروضة ، ومن عجب أن رأى فى نومه قطط الست عين فى الحديقة ، ورأى بينها بركة بهدوئها الشامخ ، وتهلل لذلك سرورا وظن أنه سيفاجىء عين بالخبر السعيد وهو أن بركة حية لم تمت كما توهمت وأنه ما كان يجدر بها أن تبكى ٠ واستيقظ ليلتها عند الفجر بقلب ثقيل بخلاف المتوقع ، كمن يرجع من رحلة طويلة عقيمة ، فخطر له أن الدنيا قطة وأنها تأكل صغارها وقال بصوت مسموع فى سكون الليل :

ـ اذا كان شارع دوبريه والاليزيه سجنا فالحارة ليست الا زنزانة !

★ ★ ★

وغادر المستشفى نحيلا هزيلا ولكن سليما ٠ تهدلت ملابسه الداخلية والخارجية ، وتبدى العالم متغير اللون ، باردا ، لا يحيى ولا يرد تحية ٠ ورجع للتفكير فى سمير ولكن من خلال استسلام شامل ٠ وحرص على الحياة رغم كل شىء

فاحترم الرجيم والدواء ومواعيد التردد على العيادة • وهجر الكأس ولكنه لم يهجر الجوزة •
وأعاد تفصيل ملابسه • رجع رشيقا كما بدأ • انتشر المشيب فى رأسه وحاجبيه وشاربه • بدا كهلا وقورا يتنافر وقاره مع بيئته وعمله • وكلما تذكر أنه جاوز الخمسين يدهش ، لا يصدق ، يستحضر مناظر خالدة فى خميلة الياسمين أو كتاب الشيخ العزيزى أو تمثيل مسرحية روميو وجولييت فى الحارة • كان يظن أن ذلك يحدث للغير فقط • فالظاهر أن التاريخ صادق فيما يؤكد من مرور أقوام فى القديم وذهابهم • وحتى متى نسلم بذلك ونذعن له ؟ ولكن شكرا للعادة فقد قتلت كل حزن وكل فرح ـ ولعله من الخير أن نترك الدنيا بعد أن نضيق بها مللا •

★ ★ ★

وماذا عن الحارة ؟ •
ان المخبر مستمر فى رواية الحكايات • مازالت سيدة منطوية فى الدار منطوية على أحزانها • ما زالت عين مصرة على نشاطها • لكن هيهات • لم تعد تخرج الا مرة واحدة فى الأسبوع • كتمثال للشيخوخة الخالدة • وتسير اذا سارت بصحبة خادمة • ترى ماذا بقى من الذاكرة والارادة والذكاء ؟ • وأى الحزنين أشد عليها حزنها على

عزت أم حزنها على سمير ؟ · وما رأى ايمانهـا الراسخ فى هـذه الأحوال الغريبة ؟ ! هـل لقى الموت مقاومة أشد مما لقى على يدى عين ؟ !

٢٥

يقول الراوى :

ان عزت عبـد الباقى لم يتوقع جديدا الا أن يكون انزال الستار واطفاء الأنوار · ولكن فرج يا مسـهل زاره فى شـقته ذات صـباح من أيام الخريف وقال له :

ـ عرفت خبرا غريبا لعله يهمك أنت أكثر من جميع الناس ·

فقال عزت ساخرا :

ـ لك الملهى وما فيه ان استطعت أن تشـغل اهتمامى ! ·

ـ لكنه خبر يحكى على أى حال ·

ـ ما هو ؟

ـ بدرية المناويشى نجمة مسرحك القديم ··

من أى صمت يخرج هذا الاسم ! نجمة مسرحك القديم · لم يحدث أى رد فعـل · نجمة يتهادى ضـوؤها اليـه من خلال أعوام طويلة طويلة ،

وكالنجوم تشكل ذكرى متألقة وحاضرا مجهولا ·
أى معنى للخبر ؟ · لا معنى على الاطلاق ولا أهمية · تساءل بفتور :

ـ ماتت ؟

فضحك يا مسهل وقال :

ـ كلا ، يقال انها ترملت منذ عامين أو نحو ذلك ، وانها ورثت مالا سائلا لا بأس به ، ولكن أتدرى كيف استثمرته ؟ ·

ـ كيف ؟

ـ أسمعت عن ملهى زهرة النيل الليلى ؟ !

ـ هو ملهى فى عوامة فيما أعلم ·

ـ بدرية صاحبته ومديرته !

ابتسم ابتسامة بلهاء ، تمتم :

ـ مدهش !

ـ ربما تكون قد حنت الى أصلها أو قريب منه ·

ـ أو أنها خافت الوحدة والكهولة · ·

ـ الأرجح أنها اختارته لضمان الربح · ·

وضحك عزت · عزت صاحب ملهى الاليزيه وبدرية صاحبة ملهى زهرة النيل ! ·

★ ★ ★

بدافع الفضول ، بدافع الضجر · قرر أن يسهر ليلة فى زهرة النيل · قال لنفسه غرفت الآن

لم يرغب الناس فى زيارة الآثار · استعد بحمام فاتر ، بدلة أنيقة ، حلق ذقنه وسوى شاربه وشعره ، مضى الى زهرة النيل · أعمارنا متماثلة ·· حمدون وأنا وبدرية وسيدة وكل أخذ نصيبه بالعدل · من المسئول عن تعاسة الجميع ؟ أنا ·· حمدون ؟ ·· بدرية ؟ ·· سيدة ؟ ·· أما كان يجب أن نحاكم ؟!·

والعوامة معدة على هيئة صالة ، بالغة الأناقة مرتفعة الأسعار · تشهد لمن أسسها بالذوق الجميل والبراعة فى الخيال · اتخذ مجلسه وراحت عيناه تجوسان فى الأركان والصفوف والمسرح ، ان صح ظنه فحجرة الادارة تقع فوق السطح ويصل اليها بهذا السلم الحلزونى المفروش بالبساط الأحمر · طلب زجاجة شمبانيا · كان الوحيد المنفرد بنفسه · لماذا جاء ؟ ولماذا لا يجىء ؟ · وغنى شاب بطريقة الافرنجوآراب · تلاه مونولوجست ، ثم راقصة· هل تمضى الليلة دون ظهور بدرية ؟! كان ينظر من آن لآن الى السلم الحلزونى · انتبه على طقة حذاء · أخذ الجسم يظهر رويدا فوق السلم الحلزونى من أسفل الى أعلى حتى استوى عند رأس الصالة ، بدرية المناويشى ، وقفت تراقب وتلاحظ · مديرة بكل معنى الكلمة ، فراح

يتفحصها . كان يتوقع تغيرا ولكن غير هذا التغير الماثل . بدينة مثل امرأة عمدة . ريانة الوجه بدرجة تدعو للنفور . جف الماء العذب وانطفأ التألق . فى مثل عمرها يحتفظ نساء بآثار جمال ولكنها لم تحتفظ بشىء . ثم ما معنى هذه النظرة فى العينين المكحولتين ؟ . ليست طبيعية ، مريضة ؟ . مهزوزة الأعصاب ؟ . فاقدة الذاكرة ؟! . حكاية تاريخ طويل تعيس ! . مرت به عيناها فلم تقف عنده . من الأفضل أن يتجاهلها وأن يتحاشاها . ولكن ها هى تتهادى فى الممشى الجانبى . ورغما عنه لم يهرب منها بعينيه . لقد جاء وعليه أن يتحمل المسئولية . لم يعد يفصلها عنه الا متر . تلاقت العينان . ابتسم اضطرارا . وقفت مبهوتة لا تصدق عينيها . وقع المقدور . زحزح كرسيه ووقف . همست :

ـ يا ألطاف الله ..

مد يده فتصافحا . أشار الى الكرسى الخالى هامسا بدوره :

ـ تفضلى ..

فجلست وهى تتمتم :

ـ يا حسين مدد !

فضحك عزت متسائلا :

ـ أطلب لك كأسا ؟

ـ كلا ·· نسيت عادتهـا ·· وأنت لم تشرب بعد ؟

ـ ولن أشرب ، ولكن بسبب المرض ··

ـ سـلامتك ·· ليسـت صحتى على ما يرام أيضا ·· ولكنى لم أتوقع أن أراك أبدا · الظاهر أنه مكتوب على الأحياء أن يتلاقوا ·

انقبض قلبه ، تذكر المطارد الغائب ، تمتم :

ـ ليس دائما ··

ـ ماذا جاء بك الى ملاهى الشباب ؟

فقال دون مبالاة :

ـ جئت لأراك !

ـ كيف عرفت ؟

ـ أهل الخير كثيرون ·

ـ دهشت طبعا ، ولكن يوجد أكثر من سبب وأنت ماذا تعمل ؟

فقال وهو يضحك :

ـ صاحب ملهى الاليزيه ··

فضحكت ضحكة عالية غير مبالية بالرواد فقال :

ـ تحـويل مسرح الى ملهى ليس بالمسـافة الطويلة ، ولكن أنت ؟!

ـ أسباب كثيرة منها حلم سخيف بأن أقـدم مسرحيات قصيرة وأمثلها ·

ـ جميل أن يعاودك الحنين الى التمثيل بعد ذلك العمر الطويل ؟

ـ مجرد حلم سخيف ٠

ـ وكيف كانت حياتك الماضية ، أعنى منذ فارقتنا ؟

فقالت مقطبة :

ـ غاية فى التعاسة ، بين زوج لا رجاء فيه وكراهية ابنائه وأهله لى ! وأنت متزوج طبعا ؟!

ـ كلا ، كما تركتنى ٠٠

ـ أخطأت يا عجوز ٠

ـ حياتنا مليئة بالأخطاء !

ـ صدقت ، تسليتى أن أراقب المجانين من عشاق الملهى ٠

ـ انهم مضجرون فى النهاية ٠٠

ـ ولكن لا حياة لنا بدونهم ، كيف حال ابنك ؟

أجاب وهو يخفى انفعاله :

ـ عال ٠٠ مهندس قد الدنيا ٠٠

ـ برافو ٠٠ هذا أهم شىء فى الدنيا ٠٠

ـ ليس فى الدنيا شىء مهم !

وهى تتنهد :

ـ أتتذكر أيام الحارة ؟

ـ تجدينها الآن سعيدة ؟

ـ أجل ٠٠ وأيام المسرح الناجحة ٠٠ وحبى القديم ٠٠ وأمى وهى تخلل الليمون ، ترى

أما زالت المرأة على قيد الحياة ؟!٠٠ على فكرة ما أخبار ست عين ؟

ـ بخير ٠

ـ برافو ! ٠٠ ليتنى أزورها ذات يـوم ٠٠ وأنت مقيم فى دارها ؟

ـ لم أرها منذ فارقت الحارة ٠٠

ـ يا خبر !٠ يا ويلنا من أمنا فى يوم القيامة !

فقال ببرود :

ـ اختلفت الطرق ٠

ـ طبعا ، من الفن الخائب الى الملاهى الليلية ، نحن نمت الى طبيعـة واحدة ، وقد تخلصـنا فى الوقت المناسب من العضو الصالح !

فقال بامتعاض :

ـ هو الذى تخلص منا

ـ سيخرج قريبـا اذا لم يكن قد خرج ، ترى متى يخرج ؟

ـ لم أعد أذكر شيئا ٠

ـ ألا تتوقع أن تراه ؟

ـ لا أظن ، وأنت ؟

ـ لا أهمية لذلك ، ولكن ما الذى جاء بك الى هنا ؟

ـ قلت كى أراك ٠

ـ أجل ، أما زلت تذكر حبك القديم ؟

فابتسم ولم يجب ٠ فقالت بحدة :

ـ الحب كذبة وضيعة ، لئيم مخادع ، يخيل الى أننى لم أحب الا المسرح ٠

ـ حقا ؟ ! ٠٠ رغم أنه جاءك عرضا ؟

ـ لكننى أحببته ، لم أتخل عن حبه ، فى أيام الزوجية التعيسة كنت أتعزى بالانفراد بنفسى وترديد بعض الأدوار ٠

ـ تعزية مبتكرة ٠

وهى تضحك بقحة :

ـ لقد كنت وغدا ، وكان حمدون بطلا ، ثم ماذا كانت النتيجة ؟ !

فقال بحدة لم يستطع تهذيبها :

ـ وكنت الشيطان وراءنا !

ـ لو تزوجنى الشيطان لكان التوفيق نصيبنا فهو خير من أمثالكم من الرجال ٠٠

فما تمالك أن ضحك وزايله التوتر ٠ تساءلت :

ـ لم لم تنشأ على مثال أمك الكريمة ؟

ـ أمى مثال لا يتكرر ٠

فضحكت ضحكة غجرية دون مناسبة وقالت :

ـ ليست أمك وحدها بالمثال النادر ، اسمعنى جيدا واحكم بنفسك ٠

هزت رأسها المصبوغ برشاقة ثم راحت تقول فى أناة وتجويد وبصوت منخفض :

ـ أيها الأصدقاء ، أيها الرومانيون ، أيها

المواطنون ، أعيرونى أسماعكم : انى جئت لكى أدفن قيصر لا لكى أشيد بذكره » ٠

فابتسم كالحالم وتمتم :

ــ جميل !

فانتفخت بتشجيعه وواصلت بصــوت ارتفــع درجة عن سابقه :

ــ « ان ما يفعل الناس من شر يعيش بعدهم ، أما الخير فغالبا ما يطمر مع عظامهم » ٠

التفت الجالســون حول المــائدة القريبة نحو الصوت وعلت الابتسامة وجوههم ، شعر عزت بشىء من الحرج ، غير أنه همس وكأنما ليغريها بالرجوع الى الهمس :

ــ كل شىء سيطمر مع العظام ٠

لم تنتبه لقوله ، سكرت بنشوة الفن والذكرى ، اجتاحتها موجة تمرد واستهتار ، جلجل صوتها فى جناح الملهى وهى تنشد :

ــ « جئت أتكلم فى مأتم قيصر ، كان صديقى ، وكان وفيا لى ، منصفا معى ؛ لكن بروتس يقول انه كان طماعا وبروتس رجل شريف » ٠

أحدقت بمائدته الأعين ، واشرأبت الأعنــاق من الجناح الآخر ، انتقــل المسرح الحقيقى الى ركنه ، التهب جبينه ارتباكا وحياء ، قال برجاء :

ــ فلنذهب الى حجرة الادارة !

لكنها كانت قد جاوزت الزمان والمكان ، وقفت

بهيئتها الداعية للرثاء وقفة شموخ وتحد ، وهتفت بصوت هز القلوب والأركان :

ــ « حتى الأمس كانت كلمة قيصر قادرة على أن تصد العالم · والآن ينطرح هناك لا تبلغ المسكنة بأحد أن يخصه بتكرمة » ·

دو المكان بالتصفيق ، تصفيق الاعجاب والمجاملة والرثاء والسكر · وقال لها عزت بتوسل :

ــ حسبك ··

فقالت بظفر أبله :

ــ ما علينا الا أن نعود للمسرح ·

فقال اتقاء لغضبها :

ــ سأفكر فى ذلك ·

ــ معنا المال ، سيرجع حمدون ، ماذا ينقصنا ؟ !

ــ عظيم ·· عظيم ·· عظيم ··

ــ تعاملنى كطفلة ؟ !

ــ أبدا ·

بحدة وحنق :

ــ لماذا جئت ؟

ــ يجب أن تكون أصدقاء ·

ــ انك أسوأ ذكرى فى حياتى ·

ــ الله يسامحك ··

ــ وغد جبان ·

ـ الله يسامحك يا بدرية ٠
ـ اذهب ولا تعد !
وصدع بالأمر فقام ومضى يتسلل بوجدان يشتعل ٠ أما هى فعادت تخطب بقوة :
ـ « أيها الأصدقاء ، أيها الرومانيون ، أيها المواطنون ٠ أعيرونى أسماعكم ٠ انى جئت لكى أدفن قيصر لا لكى أشيد بذكره » ٠

٢٦

فر وهو يجفف عرق وجهه بمنديله ٠ أى حماقة ساقته الى زهرة النيل ؟ ٠ لم لم يعمل بالحكمة التى تجعلنا نوارى الجثث فى المقابر ؟ ٠ ما كان أغناه عن تلك التجربة الأليمة التى انغرزت فى عظامه ، ألم تكفه تجربة سمير الضائع المشرد ؟ ٠ وانفرد بنفسه فى حجرة الادارة وراح يفكر فى حياته ٠
لم تكن أول مرة ولكنه كان مثارا لحد الالهام٠ ضاق أول أمره بالفراغ ولكنه استبدل به عملا لا يؤمن به ٠ أليس كذلك ؟ لم يكن من رجال المسرح ، ولا هو من رجال الملاهى الليلية ٠ العمل يمثل فى حياتى مهربا من شىء أو طمعا فى شىء أو انتقاما من شىء ٠ أمى أول من دفعنى

الى الانحراف وهى الخير الصافى · لست قادرا على فهم هذه الأمور أو هضمها · وما ينقصنى حقـا فهو راحة البـال · ما ينقصـنى حقا هو الرضا عن النفس · هل يوجد حقـا ما يسمونه بالرضا عن النفس ؟!· كيف يبلغه الانسـان ؟ وأين أجـد الجواب على هذا السـؤال ؟!· وما جدوى الأسـئلة وأنا مستسـلم لتيـار الحيـاة اليومية ؟ ! وخطر له أن يسأل فرج يا مسهل وهما يدخنان معا فى شقته عقب التشطيب ، سأله :

ـ أأنت سعيد يا عم فرج ؟

فأجاب الرجل صادقا :

ـ بفضل الله وفضلك ·

أدرك أنه لم يفهم قصده فعاد يسأله :

ـ ما أهم شىء لتوفير السعادة ؟

ـ الصحة !

ـ ولكنها وحدها لا تكفى ·

ـ والرزق !

ـ ولا شىء آخر ؟

ـ الزوجة والأولاد ·

لقد ضاق بها جميعا وفر منها الى المجهول · ولو شـاء أن يبقى ويتزوج من أخرى لفعـل · كلا ، الأمر أشد تعقيدا مما يتصور فرج يامسهل

★ ★ ★

ودق جرس التليفون ضحى يوم فى شقته :

ــ ألو ؟
ــ عزت عبد الباقى ؟
ــ أنا هو ٠٠ من حضرتك ؟
ــ أما زلت تذكر حمدون عجرمة ؟
خفق قلبه مستدعيا خليطا من الانفعالات المضطربة ، لكنه هتف :
ــ حمدون !
ــ نعم ٠٠
ــ لا أصدق ٠٠ أى فرحة ٠٠ مبارك ٠٠ مبارك ٠٠ مبارك ٠٠ أين أنت الآن ؟ ٠٠ تعال بلا تردد ٠ ٠انى فى انتظارك ٠٠

★ ★ ★

كان قد مضى على تجربة زهرة النيل شهر أو شهر وأيام ٠ وجلس ينتظر بقلب كئيب ونفس رافضة حانقا على الماضى الذى لا يريد أن يموت ، وخيل اليه أنه يستمد من عذابه قوة ستغير كل شىء وأنه سيرفض ذل الأسر المقيم ٠
وأقبل حمدون عجرمة :
أقبل رجلا آخر كما توقع ولكنه فاق توقعه ، لم يكد يعرفه ٠ رآه لأول مرة أصلع ، وعينه اليسرى أضيق من اليمنى ٠ على حين وشت مشيته الواهنة ورجله اليمنى المتصلبة بشلل أصابه ذات يوم ٠٠ تجسد له اثمه القديم مكشرا بغيضا فاستل من نفسه أى حنان كان جديرا أن

يمس أوتار وجدانه · اجتاحته عاصفة فى الخفاء وهما يتعانقان · استفزه ذلك الى مزيد من التفكير فى البحث عن حياة جديدة · يريد أن يذهب كما يتعطش الى رؤية سمير ، وجلس فى فوتيل مقابل ، فى موضع ابنه المختار ، وتبادلا النظر هو مبتسما ، والآخر جامدا أو عاجزا بفيه المعوج قليلا من الابتسام · قال عزت بابتهاج :

ـ الله وحده يعلم بمدى فرحتى بلقائك ·

فقال حمدون بصوت منخفض :

ـ توقعت ذلك ، لست على ما يرام ، ولكن يسعدنى أن أراك فى صحة جيدة ··

فقال عزت كالمحتج :

ـ بل أصبحت بدورى أخا مرض ، ليس هذا هو المهم ، كلانا وراءه حكاية وسيتيح لنا الوقت تبادل الحكايات ··

فقال حمدون بهدوء وثبات :

ـ ولكنك أنجبت ابنا رائعا !

فتأثر عزت تأثرا عميقا غطى على دهشته وتساءل :

ـ من أدراك به ؟

ـ لا شىء يمتنع عمن وراء الأسوار ·

ـ ماذا تعلم عنه ؟

فلم يزد عن قوله :

ـ انه فتى رائع ··

ـ سرعان ما فقدته ·

هز رأسه نفيا ولم يعقب ·· ترى هل يعرف عن سمير أكثر منـــه ؟ واندفع ربمـــا دون تدبر ليخرجه من تزمته فقال :

ـ آخر أخبار بدرية أنهـــا تعمل مديرة لملهى ليلى ·· « زهرة النيل » ·· ؟

ولكنه لم يتأثر · تساءل بلا مبالاة :

ـ كيف حالها ؟

ـ شاخت وخرفت !

ـ نهـــاية طبيعية وان جاءت قبـــل الأوان بقليل ··

ـ لنرجع اليك ·· ما مشروعاتك عن المستقبل !

ـ لا شيء !

رغم توقعه لذلك فقد حنق غير أنه قال بنبرة ودية :

ـ لا تحمل هما ·· ولكنك لست على ما يرام ·

ـ أصـــبت من أعوام بشـــلل نصفى ، ولست آمل فى تحسن أكثر مما بلغت ·

ـ يا للأســـف ·· ولكن الأمـــل موجود · لا شك أنك متشوق للتأليف ؟!

ـ لا قدرة لى على تأليف جملة واحدة ·

ـ على أى حال لا تحمل للرزق هما ··

فقال ممتنا :

ـ نعم الصديق أنت !

سرعان ما حدث تغير فى صورة انفجار ، بلا تمهيد ولا مناسبة ظاهرة · خرج به عن الزمان والمكان · ألقى به فى جحيم فتوثب بارادة من حديد وحطم حاجز الكذب · وقف كصاروخ ، وقال بصلابة ورفض كالمجنون :

ـ انى صاحب الرسالة ··

ارتسمت الدهشة على وجه حمدون وتساءل :

ـ أى رسالة ؟

ـ رسالة الاتهام التى أرسلت الى المحقق عقب القبض عليك !

ساد صمت كئيب ثقيل · رماه بنظرة بليدة تساءل :

ـ أنت ؟ !

ـ نعم ·· وأعرف أنك اعترفت قبل وصولها ولكننى أنا الذى أرسلتها ··

ازدرد ريقه وسأله :

ـ لم ؟

ـ خدمة للعدالة فى الظاهر ولكن لأستولى على زوجتك فى الحقيقة !

فتساءل حمدون بغموض :

ـ وتزوجت بدرية ؟

ـ كلا · ليس بوسعنا أن نسيطر على خطة كاملة ، إذ أن غيرنا يشاركنا ونحن لا ندرى فى تأليفها ·

وساد الصمت كغلاف لانفعالات شتى ولكن عزت رجع من مغامرته الجنونية بشيء من الهدوء ·· وكثير من الاستسلام ، حتى انه سأله فى النهاية :

ـ ما رأيك فيما سمعت ؟

فأجاب بازدراء :

ـ انك قذر ولكنك لست أقذر من كثيرين ··

ولم يغضب ، تلقى الذم ضمن سيال مرتعش من نشوة مبهمة · ووقف على حافة التحدى بقلب لا يخلو من جذل والهام ·· واعرابا عن حاله الجديدة قال بصوت لا أثر للاستياء فيه :

ـ أمامنا فرصة لنسيان الماضى ·

فتساءل خمدون بوجوم :

ـ ألم يكف ربع قرن للنسيان ؟

ـ كلا ·

ـ ماذا تقصد ؟

ـ أن نعالج أمورنا بروح جديدة ·

ـ أتريد أن توحد مصائرنا مرة أخرى ؟

ـ بعزيمة صادقة ·

فقال بازدراء :

ـ انك تبحث عن كفارة وانى أحتقر ذلك ·

ـ لم جئتنى ؟

ـ لم يساورنى فيك شك ·

ـ لقد حطمنا أنفسنا فيما مضى وعلينا أن نحاول البناء ٠
فقال بازدراء أشد :
ـ على أن أبصق على وجهك ٠٠
فابتسم عزت وهو نشوان بقدرته على الاحتمال ٠
ـ انى مسئول عنك ٠
ـ انك لا تستطيع أن تحمل مسئولية حشرة ٠
ـ بل يجب أن تعيد التفكير ٠
ـ لن أراك بعد اليوم ٠
ـ كيف تواجه الحياة ؟
ـ هل طرحت هذا السؤال على ابنك ؟
تغلغل الألم حتى جذور قلبه فأمسك عن الكلام على حين واصل حمدون قائلا :
ـ أى تسامح من ناحيتى يعنى أن عمرى ضاع هباء ٠
فقال عزت بأسى :
ـ انى أفكر فى بناء جديد يتسع لحياة صحية تضم حمدون وعزت وبدرية وسيدة ٠
ـ تحاول أن تجعل منا أدوات لخلق السلام لنفسك كما سبق أن جعلت منا أدوات تخريب لتشيد فوق أطلالنا السعادة التى رفضتك ٠
فقال عزت بحرارة :
ـ لقد نلت الجزاء وأكثر ٠٠

ـ لو صح ذلك ما فكرت فينا قط ٠
واخذ حمدون يقوم معتمدا على عصاه الغليظة ذات الكعب المطاط فقال عزت برجاء :
ـ تخل عن عنادك ٠
استقام ظهره على مهل ٠٠ تحرك للذهاب ٠٠
تساءل عزت :
ـ كيف تواجه الحياة ؟
فقال وهو لا يتوقف :
ـ كما يواجهها ابنك ٠
وخفق قلبه فسأله بلهفة :
ـ أنت تعرف عنه أشياء ، ماذا تعرف عن ابنى ؟
فقال وهو يعبر العتبة :
ـ لا تسال عما لا يعنيك !

٢٧

يقول الراوى :
ان عزت صار شخصا آخر ٠ منذ ذهاب حمدون تواجد عزت الأول وعزت الآخر متجاورين فى مكان واحد ٠ صورتان متطابقتان تماما غير أن الأول رمق الآخر بدهشة وحيرة ، توجس منه خيفة واعتقد أن الآخر يتوجس منه خيفة أيضا ٠

وتساءل كيف يمضى التيار بهمــا وهما فى قارب واحد ؟ لقد اعتــاد أن ينفرد برأيه ربع قرن من الزمــان وذاك الآخــر يتصرف تصرف الشركاء ويعتد بنفسه لحد التحدى · وسمعه يقول :

ــ لن أستمر ··

فسأله بحذر :

ــ ماذا تعنى ؟

لكنه لم يجبه · لم يبد عليه أنه يهتم بوجوده أو يشعر به · فقال وكأنه يخاطب نفسه :

ــ لن أستمر ، أصبح ذلك مستحيلا ··

.واذا به ينــدفع فى اجراءات لم تجر على بال الأول ، قال لفرج يا مسهل :

ــ انى ذاهب ، لك أن تدير الملهى اذا شئت ·

وحدجه فرج يا مسهل ببصر ذاهل فقال الآخر:

ــ سأبيع أثاث شقتى والتحف وخلافه ·

فقال له عزت الأول :

ــ لا حق لك فى شىء من ذلك ·

ولكن الآخر تصرف تصرف المــالك الأوحد · وأدرك الأول أنه لا قبل له بمعارضته فأوعز الى فرج يا مسهل باطاعته وأن يوهمه بأنه يصــدع بأمره وأن يبقى كل شىء على حاله · وأخيرا عانق الآخر فرج يا مسهل وهو يودعه فقال عم فرج :

ــ رجوعك الى الحارة هو ما اقترحتــه عليك من بادىء الأمر ·

فدهش الأول وسأله :
ـ أنرجع حقا الى الحارة ؟
وتجاهله الآخر كعـادته ومضى الى التاكسى . وقبل أن يتحرك التاكسى قال الآخر لفرج :
ـ قلبى يحدثنى بأننى سأحظى ذات يوم برؤية ابنى سمير .
فقال العجوز :
ـ وستجده على خير ما تتمنى له .

★ ★ ★

مضى التاكسى فى طريقـه الى الحارة . الآخر متخذا مجلسه داخله والأول يتبعـه عن كثب . وقف التاكسى عند المدخل فدخل الاثنان الحارة مشـيا على الأقـدام . دهش الأول وقال لنفسـه ليس من سمع كمن رأى . شد ما تغيرت الحارة . جددت أرضهـا فحل الأسـفلت محل الحجارة . رشـقت المصـابيح بالجدران . اختفت الخرائب وشيدت مكانها مساكن ومدرسة . حقا انها تبدو جديدة . فتياتها يخطرن فى الفساتين سافرات . لم يبق على حاله الا القبو والحصن القديم فوقه . عمـارات ست عين طليت من جـديد . أما باب دارها فلاذ بمكره تحت التمسـاح المحنـط لا ينم أديمه الخشن عن الفردوس المترامى وراءه . لم ينتبه لهمـا أحد . لم يعرفهما أحد . غريبـان فى حارة غريبة ، سأله :

ـ ألم يكن الأوفق أن نسافر الى الخارج ؟

لكن الآخر طرق الباب · دخل بثقة كمن يدخل بيته · عرفته خادمة عجوز فهللت فقال الأول :

ـ عما قريب سترى عين · ماذا عندك من قول لها ؟

وانجذب ـ متناسيا الآخر ـ لروائح الياسمين والحناء · ورأى قطة من جيل جديد لا بركة ولا نرجس ولا انعام ولا أم الليل ولا صباح ·

ـ ها هى سيدة !

ظهرت فى المشى الذى شدت منه قديما الى المذبح · ما أشبهها اليوم بأمها فى كهولتها ولكنها نحيلة شاحبة · حزينة الى الأبد · أنا المعتدى لا أنت · ولكنها ترنو اليك أنت وكأنها لا ترانى · ولكنكما تترامقان صامتين تحت ضغط الذكريات · ثم يقول الآخر :

ـ كيف حالك يا سيدة ؟

لم ترد من شدة الانفعال · اغرورقت عيناها الذابلتان · لعل التاريخ اقتحمها فى دقيقة واحدة ، ولكنها غمغمت أخيرا :

ـ تفضل فى الشرفة فالجو هناك ألطف ·

انه الأصيل وآخر الخريف ولكن اليوم دافىء. وجلس على الأريكة القديمة ، كل شىء تغير الا الدار · وهناك الخميلة التى شهدت عبث الطفولة · وتساءل الآخر :

ـ أين أمى ؟
ـ فى حجرتها ٠
ـ ألم تدر برجوعى ؟
سمع أنفاسها بدلا من الجواب فكرر السؤال٠ قالت :
ـ انها لا تغادر الفراش ٠
ـ مريضة ؟ !
ـ كلا ٠٠ انه العمر ٠٠
ـ كان يجب أن تقوديننى اليها ٠
ـ يجب أن تعرف أشياء قبل ذلك ٠
فرمقها متسائلا فقالت :
ـ لقد فقدت البصر ٠
قطب الآخر منزعجا ، وأدرك الأول ما غاب عن فرج يا مسهل ٠ واستطردت سيدة :
ـ وفقدت أيضا السمع !
وقف الآخر مضطربا متسائلا :
ـ ألم يعالجها طبيب فى الوقت المناسب ؟
ـ بلى ، أقل ما يجب ، ولكنها ارادة الله ٠
وقال الأول بحزن :
ـ لا عودة بلا ثمن ٠

★ ★ ★

اندفع الآخر الى حجرة عين ٠ رأى وجهها فوق الغطاء الأخضر على الفراش العتيق ذى الأعمدة الأربعة ٠ انحسر المنديل الأبيض عن

خصلات فضية • انطرح الوجه نحيلا طويلا محنطا بالشيخوخة • هتف :

ـ أمى !

وانكبا على جبينها فلثماه فى وقت واحد • ندت عنها حركة رقيقة وهمست :

ـ سيدة ؟ !

فقال الأول مخاطبا الآخر :

ـ رحلة خاسرة •

قال الآخر بحزن :

ـ أنا عزت يا أمى •

فقال الأول :

ـ لن تخاطب الا نفسك •

وقالت سيدة :

ـ لا تكف عن الدعاء لك ولسمير •

فقال الأول :

ـ فلنسافر الى الخارج •

★ ★ ★

رجع الآخر بصحبة سيدة الى الشرفة والمغيب يهبط متمهلا • قال :

ـ ستعرفنى بطريقة أو بأخرى •

فقالت سيدة :

ـ بالتأنى واللطف حتى لا تنفعل •

وابتعدت قليلا حتى كادت تلتصق بالأول وهى لا تدرى وقالت :

ـ يجب أن أذهب ٠
فسألها الآخر :
ـ الى أين ؟
ـ أى مكان ٠
فقال بحزم :
ـ هنا بيتك ٠
ـ ولكن ٠٠
فقاطعها :
ـ انه بيتك وسيكون بيتك أكثر ٠
فسأله الأول :
ـ ماذا تعنى بالضبط ؟ !
أما سيدة فقد رمت الآخر بنظـرة متسائلة ، فسألها مبتسما :
ـ أيداخلك شك ق أننى تغيرت ؟
فهمست :
ـ كل شىء تغير !
فقال له الأول :
ـ من الآن فصـاعدا عليـك أن تنظم قصيدة طويلة ق الرثاء ٠
وتساءلت سيدة :
ـ أما من جديد عن سمير ؟
فقال الآخر :
ـ لا جديد ، انه بعيد ، أمى بعيدة أيضا ٠
ـ لو أعرف فقط أنه حى يرزق !

فقال الآخر متأثرا بالهام منبعث من الأعماق :

ـ هو كذلك وسوف نتلاقى ذات يوم ٠

فقال الأول :

ـ لا بد من السفر الى الخارج ٠

وجلست سيدة لأول مرة غير بعيد من الآخر٠ وراحا ينظران الى الحديقة معا ٠

وشـعر الأول بأنه آن له أن يذهب ٠ غير أنه سمع سيدة وهى تقول :

ـ أوقفت ست عين أملاكها للخير على أن ينفذ ذلك بعد انقضاء الأجل ٠

فتفكر الآخر قليلا ثم قال فى غير مبالاة :

ـ خير ما فعلت !

ـ وعينتك ناظرا للوقف ومن بعدك سمير ٠

فتمتم :

ـ عظيم ٠

ـ قالت وهى تفعـل ذلك عنـك « سـيمارس الخير رضى بذلك أو أبى !

فابتسم الآخر وقال :

ـ سأفعله راضيا ٠

وقال له الأول :

ـ أستودعك الله ٠

غادر الدار ٠ غادر الحارة ٠ مضى الى شارع دوبريه ٠ استراح قليلا فى شقته ٠ ذهب الى الملهى والمطربة تفتتح السهرة منشدة :

يا ورد على فل وياسمين الله عليك يا تمرحنة

ألقى نظرة على الصالة المكتظة ثم اتجه الى حجرة الادارة . وما ان انفرد بنفسه حتى قال :

ـ عندما يرجع سمير سيجد ثلاثة آباء فى انتظاره ، أنا والآخر وحمدون ، سيختار أباه بنفسه كما اختار حياته .

وتفكر مليا ثم قال :

ـ سأسافر الى الخارج حال انتهاء الشتاء .

٢٨

يقول الراوى :

انه فى ليلة القدر انبعث فى الست عين نشاط غير متوقع . رفضت أن تمس عشاءها من الزبادى وسألت سيدة أن تجلسها . كسرت سيدة وراء ظهرها وسادة طرية وأجلستها نصف جلسة .

وقالت عين وهى تبتسم :

ـ سيطيب الجو وتشرق الأرض بنور ربها فارعوا العصافير بالرحمة ..

وتمادت فى الابتسام وهى تقول :

ـ سأغنى أغنية عشقتها فى صغرى .

وراحت تغنى بصوت ضعيف مثير :

يمامة حلوة   ومنين آجيبها

ثم هتفت :

ـ انى أرى ٠٠ أرى بكل وضوح ٠٠

اقترب منها الآخر وسألها بلهفة :

ـ هل ترينني يا أمى ٠٠ ؟

ولكنها استطردت دون أن تشعر به :

ـ انى أرى الطـيبين الذين ذهبـوا ٠٠ انهم ينادوننى ٠٠ سمعا وطاعة ٠٠ عين قادمة ٠٠

★ ★ ★

يقول الراوى :

ان الســت عين لم تمــت ٠٠ رغم أن الذين عاصروا وفاتهــا لم يعـــرفوها أو كذلك كانت أغلبيتهم ٠ ما عرفوا الا ما يتناقله الرواة ولكن ست عين لم تمت ٠٠ وحتى اليوم يطلق النــاس على المســتشفى الذى قــام مكان دارهــا ٠٠٠ « مستشفى الست عين » ٠

« تمت »

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب		تاريخ اول طبعة	تاريخ آخر طبعه	
مصر القديمة		١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة	١٩٣٨	العاشرة	١٩٧٩
عبث الاقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩	العاشرة	١٩٨٢
رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣	العاشرة	١٩٨١
كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤	العاشرة	١٩٧٩
القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥	الثانية عشرة	١٩٨٤
خان الخليلي	رواية	١٩٤٦	العاشرة	١٩٧٩
زقاق المدق	رواية	١٩٤٧	العاشرة	١٩٨٢
السراب	رواية	١٩٤٨	الثانية عشرة	١٩٨٤
بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩	الرابعة عشرة	١٩٨٤
بين القصرين	رواية	١٩٥٦	الثانية عشرة	١٩٨٣
قصر الشوق	رواية	١٩٥٧	الثانية عشرة	١٩٨٤
السكرية	رواية	١٩٥٧	الحادية عشرة	١٩٨٤
اللص والكلاب	رواية	١٩٦١	التاسعة	١٩٨٠
السمان والخريف	رواية	١٩٦٢	الثامنة	١٩٨٤
دنيا الله	مجموعة	١٩٦٢	الخامسة	١٩٧٨
الطريق	رواية	١٩٦٤	الثامنة	١٩٨٤
بيت سيء السمعة	مجموعة	١٩٦٥	السابعة	١٩٨٣
الشحاذ	رواية	١٩٦٥	السابعة	١٩٨٢
ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦	السادسة	١٩٨٣
ميرامار	رواية	١٩٦٧	الخامسة	١٩٧٩
خمارة القط الاسود	مجموعة	١٩٦٩	السابعة	١٩٨٥
تحت المظلة	مجموعة	١٩٦٩	السادسة	١٩٨٤

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة	
حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة	١٩٧١	السابعة	١٩٨٧
شهر العسل	مجموعة	١٩٧١	السادسة	١٩٨٢
المرايا	رواية	١٩٧٢	الخامسة	١٩٨٠
الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣	الرابعة	١٩٨٠
الجريمة	مجموعة	١٩٧٣	الخامسة	١٩٨٤
الكرنك	رواية	١٩٧٤	السابعة	١٩٨٦
حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥	السادسة	١٩٨٦
قلب الليل	رواية	١٩٧٥	الثالثة	١٩٨١
حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥	الرابعة	١٩٨٣
ملحمة الحرافيش	رواية	١٩٧٧	الرابعة	١٩٨٥
الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	١٩٨٧
الشيطان يعظ	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	١٩٨٧
عصر الحب	رواية	١٩٨٠	الثانية	١٩٨٧
أفراح القبة	رواية	١٩٨١	الثالثة	١٩٨٧
ليالى ألف ليلة	رواية	١٩٨٢	الثالثة	١٩٨٧
رأيت فيما يرى النائم	مجموعة	١٩٨٢	الثالثة	١٩٨٧
الباقى من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢	الثانية	١٩٨٥
أمام العرش (حوار بين الحكام)		١٩٨٣	الثانية	١٩٨٥
رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣		
التنظيم السرى	مجموعة	١٩٨٤		
العائش فى الحقيقة	رواية	١٩٨٥		
يوم مقتل الزعيم	رواية	١٩٨٥		
حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧		
صباح الورد	مجموعة	١٩٨٧		

تحت الطبع

قشتمر	رواية
الفجر الكاذب	مجموعة

رقم الايداع ٢٥٧٢

الترقيم الدولى ٢ — ٤٣٢ — ٤١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي -

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

الثمن قرشا